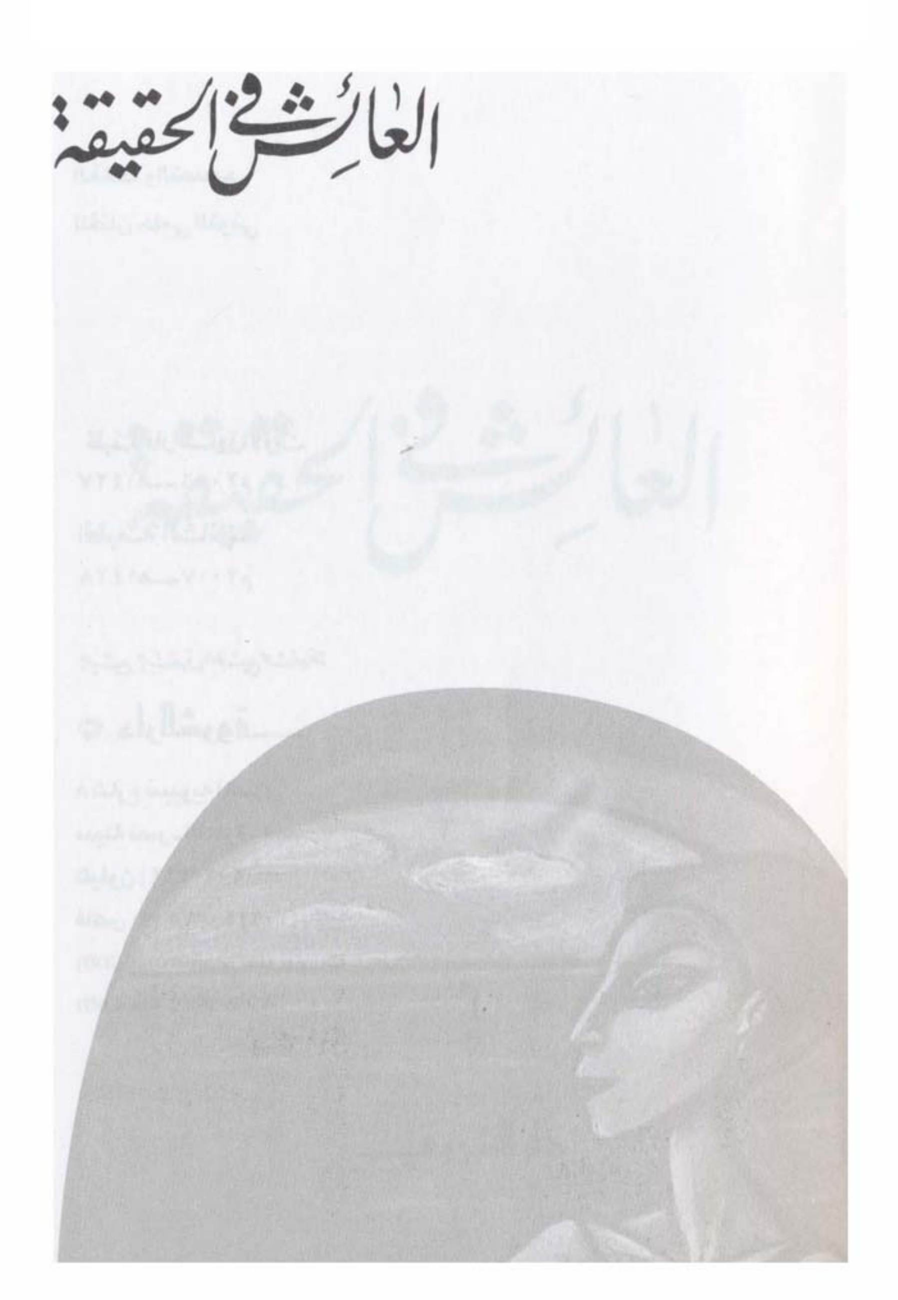
نجيب محفوظ

العائش في الحقيقة

نجيب محفوظ

العائش في الحقيقة

دار الشروق


العائش في الحقيقة

الغلاف والتصميم

للفنان حلمى التونى

طبعة دار الشروق الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الطبعة الثانية

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

أصل الحكاية

وُلدت الرغبة في أعقاب نظرة مفعمة بالإثارة، والسفينة تشق طريقها ضد التيار الهادئ القوى فى أواخر فصل الفيضان. بدأت الرحلة من مدينتنا سايس ماضية جنوبا إلى بانو بوليس لزيارة أختى التى استقر بها الزواج هناك. وذات أصيل مررنا بمدينة غريبة. مدينة تطل من أركانها عظمة غابرة، ويزحف الفناء بنهم على جنباتها وأشيائها. مترامية بين النيل غربا ومحراب الجبل شرقا، متعرية الأشجار، خالية الطرقات، مغلقة الأبواب والنوافذ كالجفون المسدلة، لا تنبض بها حياة ولا تند عنها حركة، يجثم فوقها الصمت وتخيم عليها الكآبة وتلوح فى قسماتها أمارات الموت. أجلت فيها البصر فانقبض صدرى، وهرعت إلى أبى حيث يسترخى على أريكة فوق المنصة مجللا بشيخوخته وسألته:

ـ ما شأن هذه المدينة يا أبى؟

فأجاب دون تأثر:

ـ مدينة المارق، المدينة الكافرة الملعونة، يا مرى مون..

فرجع البصر إليها بانفعال مضاعف وذكريات منثالة، ثم سألت:

ـ ألا يوجد بها حى؟

فأجاب أبى باقتضاب:

ـ ما زالت المرأة المارقة تتنفس فى قصرها أو سجنها وهو الأصح، كما يوجد بعض الحراس بلا ريب..

فغمغمت متذكرا:

ـ نفرتيتى!

ترى كيف تعانى وحدتها وذكرياتها؟! وسرعان ما استعدت ذكريات صباى فى قصر أبى بسايس، وحوار الكبار المحموم حول الإعصار الذى أطاح بأرض مصر، والإمبراطورية، وما سموه بحرب الآلهة، وفرعون الشاب الذى مزق التراث والتقاليد وتحدى الكهنة والقدر. أجل، تذكرت تلك الأيام المنسية، وما قيل عن دين جديد، وتمزق الناس بين الإيمان والولاء، والجدل حول الحقائق الغامضة، والهزائم المريرة، والنصر المقترن بالحزن. ها هى ذى مدينة العجائب مستسلمة للموت، ها هى ذى سيدتها سجينة تتجرع الألم فى وحدة، ها هو ذا قلبى الشاب يدق بعنف طامحا لمعرفة كل شىء.

وقلت لأبى: ـ لن ترمينى بحب الدعة بعد اليوم يا أبى، إن رغبة مقدسة تغزوني مثل ريح الشمال كى أعرف الحقيقة وأسجلها كما كنت تفعل فى صدر شبابك يا أبى..

فرمقنى أبى بعينيه الكليلتين وتساءل:

ـ ماذا تريد يا مرى مون؟

ـ أريد أن أعرف كل شىء عن هذه المدينة وصاحبها، عن المأساة التى مزقت الوطن وضيعت الإمبراطورية..

فقال بجدية:

ـ ولكنك سمعت كل شىء فى المعبد.

فقلت بحماس:

ـ قال الحكيم قاقمنا: «لا تحكم فى قضية حتى تسمع الطرفين»!

ـ الحقيقة هنا واضحة فضلا عن أن الطرف الآخر، المارق، قد مات..

فقلت بحماس متصاعد:

- أكثر الذين عاصروه ما زالوا أحياء يا أبى، وجميعهم أقران لك وأصدقاء. فأى توصية منك لهم خليقة بأن تفتح لى مغاليق الأبواب ومكنون الأسرار، بذلك أحيط بجوانب الحقيقة قبل أن يأتى عليها الزمن كما أتى على المدينة..

وواصلت إلحاحى عليه حتى استجاب لرغبتى، بل لعله تحمس لها فى باطنه لسابق ولعه بتسجيل الحقائق، ولرسوخه فى العلم الذى جعل من قصرنا منتدى لرجال الدين والدنيا حتى عُرف بين صحبه «بصاحب الأرض الطيبة والحكمة النادرة»، كما عُرف قصره بالندوات تروى بها الحكايات وتردد الأشعار وتمتد بها موائد البط والنبيذ.

وحرر لى رسائل توصية للكبار الذين عاصروا الأحداث، من شارك فيها من قريب أو بعيد، من ذاق حلوها ثم مرها، ومن ذاق مرها ثم حلوها. وقال لى:

- اخترت سبيلك بنفسك يا مرى مون فاذهب فى رعاية الآلهة، أجدادك ذهبوا للحرب أو السياسة أو التجارة، أما أنت فتريد الحقيقة، وكل على قدر همته، ولكن احذر أن تستفز صاحب سلطان أو تشمت بساقط فى النسيان، كن كالتاريخ يفتح أذنيه لكل قائل ولا ينحاز لأحد ثم يسلم الحقيقة ناصعة هبة للمتأملين..

وسعدت جداً بالخلاص من الخمول والتوجه إلى تيار التاريخ الذى لا تعرف له بداية ولن يتوقف عند نهاية، ويضيف كل ذى شأن إلى مجراه موجة مستمدة من حب الحقيقة الأبدية..

كاهن آمون

رجعت طيبة إلى عهدها الزاهر بعد أن ذاقت مرارة الهجران والانطواء على عهد «المارق». أصبحت العاصمة ـ من جديد، يزين عرشها فرعون الشاب توت عنخ آمون، وعاد إليها رجال السلم والحرب، واستقر الكهنة فى معابدهم. وعمرت القصور وغنت الحدائق وشمخ معبد آمون بأعمدته العملاقة وحديقته الزهراء، وماجت الأسواق بالباعة والناس والسلع. كل شىء يتألق بالعزة والاستقرار، وتيار السابلة لا ينقطع. وكنت أزورها لأول مرة فى حياتى فبهرنى جلالها وأبنيتها وناسها الذين لا يحيط بهم حصر، واقتحمتنى أصواتها ونداءاتها وعجلاتها ومحفاتها فتبدت لى بلدتى سايس بالمقارنة قرية خاملة خرساء. وقصدت فى الموعد المضروب معبد آمون، فاخترقت بهو الأعمدة فى إثر خادم ثم ملت إلى دهليز جانبى أوصلنى إلى الحجرة التى انتظرنى بها الكاهن الأكبر. رأيته يجلس فى الصدر على كرسى من الآبنوس ذى مقبضين من الذهب، شيخا هرما حليق الرأس، داخل نقبة طويلة واسعة، يلف أعلاه بوشاح أبيض. وضح لى أنه رغم شيخوخته يتمتع بحيوية فائقة وقلب مطمئن. حيّا أبى ونوّه بإخلاصه قائلا:

ـ عرفتنا المحنة بالمخلصين من الرجال.

وأثنى على مشروعى متمتما:

ـ لقد حطمنا الجدران بما سجلت من أكاذيب، ولكن الحقيقة يجب أن تسجل.

وحنى رأسه كالممتن وهو يقول:

ـ اليوم يتربع آمون على عرشه، ويقف فى سفينته المقدسة بقدس الأقداس سيدا للآلهة، حاميا لمصر، رادعا لأعدائها، ويسترد كهنته سيادتهم الشاملة، هو الإله الذى حرر وادينا بيد أحمس، ومد حدودنا شمالا وجنوبا وشرقا وغربا بيد تحتمس الثالث، هو الإله الذى ينصر ويذل من يخونه.

فركعت إجلالا حتى أذن لى فجلست على مقعد منخفض بين يديه، واستجمعت حواسى للإصغاء على حين راح الكاهن الأكبر يقول:

ـ إنها قصة حزينة يا مرى مون بدأت فيما يشبه الهمس البرىء، وجاءت البداية على يد الملكة العظمى أم المارق وزوجة فرعون العظيم أمنحتب الثالث. امرأة من الشعب لا يجرى فى عروقها دم ملكى، من أسرة نوبية، وكانت قوية وداهية كأن فى رأسها أربع أعين ترى الجهات جميعا فى وقت واحد. وكانت فى الظاهر تحرص على إرضائنا ومودتنا، ولن أنسى قولها لى يوم الاحتفال بعيد النيل:

ـ أنتم الخير والبركة يا كهنة آمون!

وكان من عادتها أن تحدق فى الرجال الأقوياء بعينيها النجلاوين حتى يحنوا الرءوس متعثرين فى ارتباكهم. ولم نتوجس منها خيفة ولا ننسى حب فراعين الأسرة المجيدة لكهنة آمون، حتى وجدنا الملكة تهتم بتوسيع مجال الدراسات الدينية؛ لتشمل ديانات الآلهة الأخرى وبخاصة الإله آتون. ولم يعد الأمر فى ظاهره أن يكون زيادة فى المعرفة بديانات نحترمها جميعا ونقدسها، فلم نجد ثمة وجه للاعتراض ولكن

ساءنا أن تحظى الآلهة بذلك الامتياز فى طيبة موطن آمون. ولم يلطف من مشاعرنا ما رددته تيى من أن آمون سيظل سيد الآلهة إلى الأبد كما أن كهنته سيظلون على رأس كهنة مصر بلا استثناء. وقال لى توتو الكاهن المرتل:

ـ إنى أستشف وراء القرار سياسة جديدة لا شأن لها بالدين فى ذاته!

فطالبته بمزيد من الإيضاح، فقال:

ـ الملكة العظمى تخطب ود كهنة الأقاليم لتقيم توازنا بيننا وبينهم فتحد من سلطان الكهنة، وتقوى سلطة العرش.

فقلت له ولم أكن أخلو من الهواجس:

ـ نحن خدام الإله والشعب، نحن المعلمون والأطباء، والمرشدون فى الدنيا والعالم الآخر، والملكة العظمى سيدة حكيمة وهى لا شك فى أنها تقر لنا بالفضل.

فقال توتو بامتعاض:

ـ النزاع على السلطة، والملكة قوية طموح، وهى فى رأيى أقوى من الملك نفسه!

فقلت وكأنما أناقش مخاوفى:

ـ نحن أبناء الإله الأعظم ووراءنا تراث أقوى من الدهر.

ولعله من المفيد الآن أن أحدثك عن الملك أمنحتب الثالث. لقد شيد له جده تحتمس الثالث إمبراطورية لم تسبق بمثيل فى اتساعها وتعدد أجناسها. وكان ملكا قويا، يثب للدفاع عن أملاكه عند أول نذير يخطر، وحقق انتصارات حاسمة حتى دانت له الإمبراطورية بالطاعة الكاملة. غير أن عهده الطويل غلب عليه السلام والرخاء. جنى هو ثمار ما تعب أسلافه فى زرعه فانهمرت عليه المحاصيل والثياب والمعادن والنساء، وبنى القصور والمعابد والتماثيل، وغرق حتى أذنيه فى الطعام

والشراب والنساء. وعرفت المرأة الداهية نقاط القوة والضعف فى زوجها فاستثمرتها على خير ما يكون الاستثمار، شجعته على الحرب حين الحرب، وتسامحت معه فى شهواته مضحية بقلبها كامرأة لتشاركه سلطانه بكل جدارة، ولتمارس طموحها غير المحدود، ولا أنكر أنها كانت ملمة بكل صغيرة وكبيرة من شئون مصر أو الإمبراطورية، ولا أنكر إخلاصها وبُعد نظرها وحرصها على المجد والعظمة، ولكنى آخذ عليها نهمها للسلطة، ذلك النهم الذى سول لها أن تستغل الدين بنعومة ودهاء لتستأثر بالقوة للعرش دون الكهنة أجمعين. ثم تبين لى أن ثمة أفكارا أخرى تدور برأسها، فقد زارت المعبد يوما لتقديم القرابين، وتقدمتنى بعد ذلك إلى مثوى الراحة بقامتها القوية المتوسطة، فلما استقر بنا المجلس سألتنى:

- ماذا يحزنك؟

وجعلت أفكر فى اختيار رد مناسب، ولكنها عاجلتنى قائلة:

- إنى أقرأ أسرار القلوب مثل الكهنة، إنك تظن أنى أرفع من شأن الكهنة الآخرين على حساب كهنة آمون؟

فقلت مسلما:

- كهنة آمون هم أمناء أسرتكم المجيدة..

فقالت وعيناها تبرقان:

- إليك ما أفكر فيه أيها الكاهن الأكبر. آمون سيد آلهة مصر، وهو يقوم أمام رعايانا فى الإمبراطورية رمزا للسلطة وربما للهزيمة، أما آتون إله الشمس فإنه يشرق فى كل مكان وبوسع أى مخلوق أن ينتمى إليه دون غضاضة!

ترى أهذا حقّا ما تفكر فيه أم أنه حجة جديدة تدارى بها رغبتها الحقيقية فى تقليم أظافرنا؟ على أن الفكرة نفسها لم تفز بإقناعى وقلت:

ـ مولاتى، أولئك المتوحشون يحكمون بالقوة لا بالمودة!

فقالت باسمة:

ـ وبالمودة أيضا، ما يصلح لمعاملة الوحوش لا يصلح لمعاملة الحيوان المستأنس..

وآمنت بأنها رؤية أنثوية عقيمة وقد تثمر عواقب وخيمة، وهذا ما أثبتته الأحداث الأليمة فيما بعد.

وسكت الكاهن الأكبر كأنما يتأمل أو ليتذكر، ثم واصل حديثه:

ـ ومما يذكر أنها صادفتها فى مطلع حياتها الزوجية متاعب فلبثت مدة غير قصيرة لا تنجب، تعانى المخاوف من شبح العقم ويضاعف من مخاوفها أصلها الشعبى، وبفضل آمون وكهنته، وبفضل الدعوات الصالحات والسحر القوى حملت الملكة، ولكنها أنجبت بنتا! وكلما التقينا فى القصر أو المعبد رمقتنى بنظرة حذرة مترعة بسوء الظن كأننى المسئول عن سوء حظها. وما كنا نفكر فى تعكير صفو العرش قط، ولكنها كانت قليلة الثقة فى الناس لفساد طويتها.

وسكت مرة أخرى كالمتردد، ثم قال:

ـ وبطريقة غامضة أنجبت ذكرين!

وتريث الرجل حتى اشتعلت تساؤلاتى الخفية، ثم قال:

ـ مات أكبرهما وأصلحهما وبقى الآخر ليمارس شذوذه فى تخريب مصر.

وقرأ الكاهن تساؤلاتى المحرقة، فقال:

ـ نحن نعرف كيف نصيد الحقيقة وإن امتنعت عن الكثيرين، لنا من السحر قوة، ولنا من العيون قوة.. فالمارق مجهول الأب، فاقد الرجولة، مؤنث الصورة، متنافر القسمات. وعلى مثال أبيه تزوج من فتاة من الشعب، جمعت فى شخصها مثل أمه بين الأصل

الشعبى والطموح الجنونى والفسق. جميلة عنيدة متحدية فاندفعت معه فى سياسته المدمرة. وأنجبت له ست بنات من رجال آخرين. ورغم حبه الظاهر لها فلعله لم يحب فى الواقع إلا أمه، أعطته الحياة والأفكار، ولشدة التصاقه بها شعر بوحدتها وآلامها فحنق على أبيه حنقا دعاه إلى الانتقام منه بعد موته فمحا اسمه من الآثار بحجة اقترانه باسم آمون، أما الحقيقة فهى أنه أعدمه بعد موته بعد أن عجز عن قتله فى حياته. وقد لقنته أمه دين آتون التى آمنت به لأهداف سياسية، ولكنه آمن به إيمانا حقيقيا نابذا السياسة التى لم توافق طبيعته الأنثوية، ومنه مرق إلى الكفر وهو ما لم تتوقعه أمه نفسها. مازلت للأسف أتذكر صورته الكريهة.. ما كان رجلا وما كان امرأة، وكان ضعيفا لحد الحقد على الأقوياء جميعا من رجال وكهنة وآلهة. وقد اخترع إلها على مثاله فى الضعف والأنوثة، تصوره أبا وأما فى وقت واحد، وتصور له وظيفة وحيدة هى الحب! فكانت عبادته رقصا وغناء وشرابا، وغرق فى مستنقع الحماقة معرضا عن واجباته الملكية على حين كان رجالنا المخلصون فى الإمبراطورية وأحلافنا الأوفياء يتساقطون تحت ضربات العدو، يستغيثون ولا يغاثون، حتى ضاعت الإمبراطورية وخربت مصر وخوت المعابد وجاع الناس. هذا هو المارق الذى سمى نفسه إخناتون!

وصمت الكاهن الأكبر تحت وطأة الانفعال وحدة الذكريات، ثم شبك أصابع يديه فى قبضة واحدة وراح يقول:

- ومنذ نشأته الأولى جاءتنى الأخبار عنه بلسان رجال لى فى القصر ممن نذروا أنفسهم لآمون والوطن. وعنهم عرفت أن ولى العهد ينجذب نحو آتون ويهمل آمون، وأنه رغم حداثة سنه يلوذ بخلوة على شاطئ النيل يستقبل فيها الشروق بالأغانى. أدركت لتوى أنه

صبى غريب ينذر بالمتاعب . وسعيت إلى مقابلة العرش وأفضيت هناك للملك والملكة بمخاوفى . وابتسم أمنحتب الثالث وقال :

ـ ما زال ابنى طفلا .

فقلت :

ـ ولكن الطفل يكبر ويحتفظ فى أعماقه بأفكار طفولته .

فقالت تيى :

ـ إنه ينشد الحكمة فى كافة مظانها بقلب برىء .

قال فرعون :

ـ عما قريب يبدأ تدريباته العسكرية ويعرف أهدافه الحقيقية .

فقالت تيى :

ـ لا حاجة بنا إلى المزيد من البلدان ، ولكننا فى حاجة إلى الحكمة للمحافظة عليها . .

فقلت بوضوح :

ـ لا سبيل إلى المحافظة عليها إلا بالاعتماد على آمون وممارسة القوة .

فقالت المرأة الداهية :

ـ ما رأيت حكيما يستهين بالحكمة مثلك يا كاهن آمون !

فقلت بإصرار :

ـ إنى لا أستهين بالحكمة ، ولكني أراها لغوا بغير سند من القوة .

فقال أمنحتب :

ـ لا خلاف فى هذا القصر على أن آمون هو سيد الآلهة . فقلت بقلق :

ـ إنه انقطع عن زيارة المعبد .

فقال الملك :

ـ صبرا، عما قليل سيؤدى واجباته كافة كولى للعهد. .

لم أرجع من اللقاء بما يسكن الخواطر، بل لعل مخاوفنا ـ نحن الكهنة ـ وجدت ما يسوغها ويقويها. وجاءتنا أنباء جديدة عن حوار دار بينه وبين والديه أدركنا منه أن ذلك الجسد المهزول ينطوى على سراديب قوة وعناد شريرة تنذر بأوخم العواقب. وذات يوم قابلنى أحد أتباعى وقال لى:

الشمس نفسها لم تعد إلها!

فسألته عما يعنى، فقال:

ـ إنهم يتهامسون هناك عن إله جديد لم يُعرف من قبل تجلى لروح ولى العهد وطالبه بأن يعبده بوصفه الإله الوحيد الحقيقى فى الوجود، هو وحده لا شريك لهِ، وكل معبود سواه باطل.

صعقنى الخبر صعقا، وأيقنت أن الموت الذى خطف الأخ الأكبر أهون وأرحم من الجنون الذى حل بالأصغر، وتجسدت أمام عينى الكارثة فى أبشع صورة.

ـ أأنت واثق بما تقول؟

ـ إنما أنقل إليكم ما يتهامس به الجميع.

ـ وكيف تجسد له ذلك الإله المزعوم؟

ـ سمع صوته فقط. .

ـ لا شمس ولا نجم ولا تمثال؟

ـ لا شىء ألبتة.

ـ وكيف يعبد ما لا يرى؟

ـ إنه يؤمن بأنه القوة الوحيدة الخالقة.

ـ لقد أذاب المجنون ذاته فى اللاشىء!

وقال الكاهن المرتل توتو :

ـ لقد جن وفقد الأهلية لتولى العرش .

فقلت برجاء :

ـ اهدأ يا توتو ، فمهما كفر فستظل الآلهة باقية معبودة للملايين . .

فتساءل بحدة :

ـ ولكن كيف يتولى العرش كافر مارق؟

فقلت بكآبة :

ـ فلننتظر حتى تعلن الحقيقة ثم نقدم على طرح الموضوع للمناقشة مع الملك ، وسوف تكون المناقشة الأولى من نوعها فى تاريخنا الطويل . .

وحدث أن تزوج ولى العهد من نفرتيتى الابنة الكبرى للحكيم الصديق آى . كانت أيضا مثل الملكة العظمى تيى من أصل شعبى ، ولكنى تعلقت بأمل واحد واه وهو أن يرده الزواج إلى شىء من التوازن . ودعوت آى إلى مقابلتى فوجدته حذرا فى حديثه فقدرت حرج مركزه ولم أشر من جانبى إلى أنباء الكفر ، ولكنى اتفقت معه على أن يرتب لتدبير زيارة سرية تتم بينى وبين ابنته . وتأملتها بعين فراستى المستمدة من روح آمون فتكشف لى جمالها عن قوة ذكّرتنى بالملكة العظمى تيى فرجوت أن تكون هذه القوة لنا لا علينا . وقلت لها :

ـ تقبّلى بركاتى يا بنتى وابنة صديقى آى .

فشكرتنى بعذوبة ، فقلت :

ـ أرى من واجبى أن أذكرك ، ولست فى حاجة إلى تذكير ، بأن العرش يقوم على ثلاثة ، آمون سيد الآلهة ، وفرعون ، والملكة .

فقالت :

ـ سعيد من يصغى إلى حكمتك .

فقلت :

ـ والملكة الحكيمة تشارك الملك فى المحافظة على الوطن والإمبراطورية .

فقالت بثبات :

ـ أيها الكاهن المقدس ، قلبى ملىء بالحب والإخلاص .

فقلت بوضوح :

ـ مصر مثوى التقاليد الخالدة ، والمرأة هى الوعاء المقدس للتقاليد .

فقالت بالثبات نفسه :

ـ وقلبى ملىء بالواجب أيضا .

يا لها من حذرة متحفظة كتمثال بلا نقوش تفسره! لقد تكلمت ولم تقل شيئا ولم يكن بوسعى أن أكاشفها بأكثر من ذلك . غير أنها فى الحقيقة قد قالت أكثر من المتوقع . إن تحفظها يعنى أنها تعرف كل شىء . وأنها لن تكون معنا . إنها مرشحة للعرش بضربة حظ خليقة بأن تدير أكبر رأس ، وسيكون همها الأول فى الحياة المحافظة على العرش ، لا آمون ولا الآلهة . وأقمت مع الكهنة صلاة للحزن فى قدس الأقداس ، ثم وافيتهم بفحوى الحوار بينى وبين نفرتيتى ، فقال توتو معلقا :

ـ سينكشف الغد عن ليل طويل .

ثم خلا إلىّ متسائلا :

ـ ألا تستطيع أن تناقش المستقبل مع القائد ماى؟

فلمحت ما يرمى إليه وقلت بصراحة :

ـ لا نستطيع أن نتحدى أمنحتب الثالث والملكة العظمى تيى .

بدا أن الأمور لا تسير يسيرة فى القصر بين المجنون ووالديه ، من أجل ذلك صدر أمر ملكى لولى العهد ليقوم برحلة تعارف فى أرجاء

الإمبراطورية. ولم أشك فى أن الملك أراد أن يعرف ابنه رعاياه وأن يعيش الواقع لعله يفيق من ضلاله. وحمدت له ذلك فى نفسى، غير أن كآبتى ظلت راسخة. وفى أثناء الرحلة حدثت أمور على جانب كبير من الأهمية، فقد أنجبت تيى توءمين هما: سمنخ رع وتوت عنخ آمون، بعد فترة تدهورت صحة الملك العجوز ومات. ورحل مبعوثون إلى ولى العهد بالأخبار ليرجع فيتولى سلطته. وتشاورنا نحن الكهنة حول مستقبل البلاد فاتفقنا على رأى . وسعيت إلى مقابلة الملكة تيى رغم الحداد وانشغالها بتحنيط زوجها. وجدتها فى حزنها قوية ثابتة واعية بأهدافها. وكان علىّ أن أصارحها بما جئت من أجله مهما كلفنى ذلك. قلت:

- جئت يا مولاتى لأفضى برأيى إلى الأم الشرعية للإمبراطورية.

وأصغت إلىّ ومنظرها يوحى بأنها تحدس بفطنة ما سيقال.

- مولاتى، أصبح معروفا أن ولى العهد قد كفر بجميع الآلهة.

فتجهم وجهها وقالت:

- لا تصدق كل ما تسمع.

فقلت بلهفة:

- إنى على استعداد لتصديق ما تقولين يا مولاتى.

فقالت باقتضاب:

- إنه شاعر أيها الكاهن الأكبر.

ولذت بالصمت بغير اقتناع، فقالت بثقة:

- سوف يعرف واجبه تماما.

فقلت مستجمعا شجاعتى:

- مولاتى تعرف عواقب الكفر بالآلهة على العرش!

فقالت بضيق :

ـ لا خوف على عبادة الآلهة !

فقلت مستزيدا من شجاعتى :

ـ أمامنا حل إذا مست الضرورة إليه وهو أن نولى أحد ابنيك الصغيرين وتكونين الوصية على العرش !

فقالت بحزم :

ـ سيحكم أمنحتب الرابع لأنه ولى العهد .

هكذا غلبت الأم العاشقة الملكة الحكيمة وضيعت فرصة النجاة وأتاحت للقدر أن يضرب ضربته القاتلة .

ورجع ولى العهد المؤنث المجنون . ودُفن الملك الأب فى موعده ، وسرعان ما طلبت لمقابلته بصفته الرسمية . لأول مرة أراه عن قرب وأمعن فيه النظر . كان ذا سمرة غامقة ، وجسم طويل نحيل ، وعينين حالمتين ، وتكوين أنثوى لا يخفى على أحد ، أما ملامحه فمتنافرة مثيرة للقلق . إنه كائن هزيل حقير لا يليق بعرش ولا يتصور أن يتحدى بعوضة لا آمون سيد الآلهة . وداريت تقززى وعزيته مقتبسا من حكم الحكماء وشعر الشعراء ، وهو يرمقنى بنظرات محيرة . لا كراهية فيها ولا تحد ولا ود . وشتت منظره فكرى لدرجة أن غلبنى الصمت فبادرنى هو قائلا :

ـ طالما تسببت لى فى مناقشات مرهقة مع والدى !

فاستردت قدرتى على الكلام ، فقلت :

ـ لا هم لى فى الحياة إلا آمون والعرش ومصر والإمبراطورية . .

فقال بهدوء :

ـ لديك ما تقوله ولا شك .

فقلت وأنا أتأهب لخوض المعركة :

ـ سمعت أنباء مقلقة، ولكنى لم أصدقها.

فقال بلا مبالاة:

ـ إنها حقيقية!

فذهلت وانعقد لسانى، فواصل حديثه:

ـ إنى المؤمن الوحيد فى بلد من الضالين.

ـ لا أصدق أذنى.

ـ بل صدقهما، لا إله إلا الإله الواحد.

واقتحمنى الغضب لعقيدتى فلم أعد أبالى بالعواقب دفاعا عن آمون وسائر الآلهة.

وقلت بصراحة مخيفة:

ـ هذا تجديف لن يغفره آمون لبشر..

فقال بهدوء باسم:

ـ لا يملك منح المغفرة إلا الإله الواحد.

فقلت وأنا أنتفض من شدة الانفعال:

ـ إنه لا شىء.

فبسط ذراعيه بحنان وقال:

ـ هو كل شىء، الخالق.. القوة.. الحب.. السلام.. السرور.

ثم ثقبنى بنظرة نافذة تتناقض تماما مع هيكله الواهن:

ـ إنى أدعوك للإيمان به.

فقلت محذرا محتدا:

ـ احذر غضب آمون، إنه قادر على المنع قدرته على العطاء، قادر على العون قدرته على الخذلان، قادر على التأمين قدرته على التدمير. خف على رزقك وذريتك وعرشك وإمبراطوريتك.

فقال متماديا فى الهدوء :

- إنى طفل يحبو فى رحاب الواحد ، وبرعمة تتفتح فى حديقته ، إنى راض بقدره خادم لأمره ، وقد تعطف فتجلى لروحى حتى أترعت بالأنوار وسالت بالأنغام . ولن أبالى بعد ذلك بشىء !

فقلت بغضب :

- إن ولى العهد لا يصير فرعون حتى يتوج بين يدى آمون !

فقال باستهانة :

- بل يتوج تحت نور الشمس فى رعاية الخالق الوحيد . .

وافترقنا على أسوإ حال . معى آمون والمؤمنون ومعه تراث أسرته المجيدة ومنزلته المقدسة عند رعاياه وجنونه الذى لا يبالى بشىء . وتوثبت للحرب المقدسة موطنا نفسى على التضحية فداء لإلهى ووطنى . ولم أتوان عن العمل لحظة ، وقلت لأبنائى الكهنة :

- فرعون الجديد كافر ، عليكم أن تعلموا بذلك وأن تُعلموا الناس به . .

ورغم حماسى وجدتنى مسوقا إلى كبح جماح توتو الكاهن المرتل فاقترحت عليه الانضمام فى الظاهر إلى المارق ليكون عينا لنا عليه . ومن ناحية أخرى فلم يتوان الملك أيضا عن العمل فتم التتويج فى رحاب الإله المزعوم وأصر بتشييد معبد له فى طيبة مدينة آمون المقدسة ، وراح يعرض دينه على الرجال ليختار معاونيه فأعلن صفوة مصر إيمانهم بدوافع شتى ولهدف واحد وهو تحقيق طموحهم على حساب عقيدتهم . ولو جاهر الرجال بالعصيان لتغير المصير ، ولكنهم سقطوا كالنساء الداعرات . هذا الحكيم آى اعتبر نفسه ضمن الأسرة فأسكره الجاه وأعماه ، وحور محب الجندى الشجاع لم يكن صاحب عقيدة صادقة فكان الأمر بالنسبة إليه مجرد تغيير اسم لا معنى له ، أما الآخرون فلم يكونوا سوى منافقين لا

همّ لهم إلا الجاه والمال. ولولا ارتدادهم عن غيهم في اللحظة الحرجة لاستحقوا القتل، وقد فازوا بالحياة، ولكنني لا أكن احتراما لأى منهم. واشتد التوتر في طيبة وانقسم الناس بين الولاء لآمون والولاء للمجنون سليل أعظم أسرة في تاريخنا المجيد. وجزعت الملكة الوالدة تيي وهي ترى غرس يديها وهو يتحول إلى نبات سام، وهو ينحدر نحو الهاوية جارا معه أسرته إلى الفناء. وواظبتْ على زيارة معبد آمون وتقديم القرابين محاولة تلطيف موجة التمرد العارمة التي تهدد باقتلاع العرش. وجعلت تقول لي:

ـ بالولاء تكسبون وبالتمرد تخسرون..

وكنت أقول لها:

ـ كيف تطالبيننا بالولاء لكافر؟! ليتكم آمنتم بنصائحي!

فتقول لي:

ـ علينا أن نطرد اليأس من أفقنا!

لقد ثبت عجزها أمام ابنها المؤنث المدلل، وانهارت قوتها التقليدية حيال قوة جنونه الخفية، ولم يكن مفر من أن نواصل القتال حتى النهاية. من أجل ذلك ضاق المجنون بطيبة، وترامت إلى مسمعه هتافات عدائية في عيد آمون، فادعى أن إلهه أمره بالهجرة إلى مدينة جديدة تشيد من أجله. هكذا أجبرناه على الهجرة مصحوبا بثمانين ألفا من المارقين؛ ليقيموا لأنفسهم سجنا تحل به اللعنة. وخلا لنا الجو لإدارة معركتنا المقدسة، وخلا له الجو للإمعان في الكفر والضلال حتى انقلبت العاصمة الجديدة مدينة للملاهي والسكر والعربدة والفسق التي يبشر بها إله مجهول الهوية شعاره الحب والسرور! وكلما ألح على المجنون ضعفه الطبيعي غالى في إظهار قوته فأمر بإغلاق المعابد ومصادرة الآلهة وأوقافها وتشريد الكهنة. وقلت لأبنائي الكهنة:

ـ لا قيمة للحياة بعد إغلاق المعابد فأحبوا الموت .

وقد وجدنا فى بيوت المؤمنين مأوى وفى قلوبهم جيوشا فواصلنا الجهاد بهمة متصاعدة وأمل يقترب من الشروق يوما بعد يوم . وتمادى المارق فقام بزيارات إلى الأقاليم داعيا شعبه إلى الكفر ، وشد ما عانى الشعب فى تلك الأيام السود من تمزق بين ولائه لآلهته و ولائه لملكه الذى أذهلهم بجسمه المتهافت وطابعه الأنثوى ووجهه المنفر وزوجته الجميلة الفاسقة .

تلك كانت أيام الأحزان والعذاب والنفاق والندم والدموع المنهمرة والرعب من غضب الآلهة . وأحدثت رسالة الحب المؤنث آثارها فاستهتر الموظفون بواجباتهم واستغلوا الناس أبشع استغلال ، وسرى التمرد فى أنحاء الإمبراطورية ، واستهان بحدودها الأعداء ، واستغاث بنا الأمراء المخلصون فأرسلت إليهم الأشعار بدلا من الجيوش فقتلوا دفاعا عن إمبراطوريتنا وهم يلعنون الخائن المارق المجنون . وتوقف الخير المتدفق على أرض مصر من جميع البلدان حتى خلت الأسواق وأفلس التجار وجاع العباد . وصحْت بأعلى صوتى :

ـ ها هى ذى لعنة آمون الغاضب تحل بنا فإما القضاء على المارق ، وإما الحرب الأهلية .

ولم أدع فرصة للخير لم أجربها لتجنيب البلاد ويلات الحرب ، فقابلت الملكة الأم تيى ، وقالت لى بحرارة :

ـ إنى حزينة أيها الكاهن الأكبر .

فقلت بمرارة :

ـ لم أعد كاهنا أكبر ، لست إلا شريدا مطاردا . .

فقالت ملعثمة :

ـ إنى أسأل الآلهة أن تمدنا برحمتها .

فقلت لها :

ـ لابد من العمل ، إنه ابنك ، وهو يحبك ، وإنك تتحملين تبعة لا يستهان بها فيما انتهت إليه الأمور فبادريه بنصحك قبل أن تنشب حرب أهلية لن تبقى على شىء . .

فقالت بامتعاض لتذكيرى لها بمسئولياتها فيما حدث :

ـ لقد قررت السفر إلى العاصمة الجديدة أخت آتون . .

ولا أنكر أنها بذلت جهدا ، ولكنها لم تستطع أن تصلح ما أفسدت ، ولم أستسلم لليأس فسافرت بنفسى مجازفا إلى أخت آتون واجتمعت بالرجال وقلت لهم :

ـ إنى الآن أتكلم من موقع القوة ، وورائى رجال ينتظرون إشارة للانقضاض عليكم ، ولكنى آثرت أن أحاول محاولة أخيرة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه دون سفك دماء أو خراب ، وسأترك لكم مهلة لتؤدوا واجبكم وترجعوا إلى ضمائركم . .

وقرأت فى وجوههم الاقتناع بما قلت ، وبصرف النظر عن دوافعهم الحقيقية فقد أدوا ما طالبتهم به وجنبوا البلاد شر ويلات كثيرة . قابلوا المارق المجنون وطالبوه بأمرين عاجلين : إعلان الحرية الدينية ، وإرسال جيش للدفاع عن الإمبراطورية . ولكنه رفض معلنا بذلك جنونه على الملأ . وعند ذاك طالبوه بالتنازل عن العرش وله أن يحتفظ بعقيدته بل وأن يدعو إليها كيفما شاء ولكنه رفض أيضا . غير أنه عين أخاه سمنخ رع شريكا له فى العرش ، فتجاهلنا أمره واخترنا توت عنخ آمون ليجلس على العرش مختارا منا . وبإزاء عناد المجنون قرر الرجال هجره وهجر مدينته وإعلان ولائهم لفرعون الجديد ، بذلك تغيرت الدولة بلا حرب ولا خراب ، وفى نظير ذلك عدلنا عن الانتقام من المجنون وزوجته ومن أبقى على الوفاء له من رجاله .

وفتحت المعابد أبوابها وهرع إليها المؤمنون بعد حرمان طويل، وانقشع الكابوس ومضى كل شيء يعود إلى أصله على قدر الإمكان. أما المارق فبعد أن شبع جنونا أدركه المرض وما لبث أن مات خائب المسعى فى الدنيا وفاقد الأمل فى العالم الآخر، مخلفا وراءه زوجته الشريرة تعانى الوحدة والهجر والندم.

وصمت الرجل طويلا وهو يرنو إلىّ، ثم قال:

- نحن نضمد جراحنا، يلزمنا عمل كبير وشاق، خسارتنا فى الداخل والخارج أكبر من أن يحيط بها حصر، كيف حدث هذا؟! كيف أتيح لمجنون مشوه أن يفعل بنا ذلك كله تحت سمع العقلاء وبصرهم؟!

وتريث قليلا، ثم خاطبنى قائلا:

- لقد كشفت لك عن الحقيقة خالصة بلا تزويق ولا تشويه فسجلها فى دفترك بأمانة، وأبلغ تحياتى والدك.

آى

هو الحكيم، أبو نفرتيتى وموت نجمت، ومستشار المارق. حفر الكبر أخاديد فى وجهه وسكن فيها، استقبلنى فى قصره المطل على النيل فى جنوبى طيبة. جرى حديثه فى هدوء وبصوت منخفض ودون أن ينبض وجهه بأى انفعال. وقد أثر فى وقاره وعمره المديد وما يطوى فى صدره من تاريخ حافل. بدأ حديثه بقوله:

ـ ما أعجب الحياة، إنها سماء تمطر تجارب متناقضة!

وتفكر مستغرقا بفيض من الذكريات، ثم قال:

ـ التحمت بالأحداث فى يوم من أيام الصيف، دُعيت إلى مقابلة الملك أمنحتب الثالث والملكة العظمى تيى، ولما مثلت بين يديهما قالت لى الملكة:

ـ يا آى، أنت رجل حكيم، تعرف أجمل ما فى الدنيا والدين، قررنا أن نعهد إليك بتربية ابنينا تحتمس وأمنحتب..

فحنيت رأسى الحليق وقلت:

ـ سعيد من يحظى بخدمة مولاه ومولاته.

وكان تحتمس فى السابعة وأمنحتب فى السادسة. وكانا جد مختلفين لحد التضاد، فتحتمس قوى، وسيم، قصير القامة، وأمنحتب ضعيف البنية، غامق السمرة، طويل القامة، أنثوى القسمات، وذو نظرة رقيقة وغازية معا تلتصق بالنفس بعمق. وما لبث أن مات الصبى الجميل وبقى

الضعيف الغريب. وهز الموت الصبى الحى هزة عنيفة جدًا. بكى طويلا، وكلما خطرت ذكرى بكى من جديد. وقال لى:

- كان يزور معبد آمون، ويتلقى الرقى والتعاويذ، ولكنه مات..

وقال لى أيضا:

- وأنت الحكيم المعلم فلم لا ترد إليه الحياة؟

وقلت له:

- إن الروح تقول للميت: «ألق عنك هذا الحزن أيها الأخ، إننى باقية».

وجرّنا ذلك إلى حديث عن الحياة والموت، وشد ما أدهشنى بإدراكه ووجدانه. كان يفوق سنه بأجيال. وساءلت نفسى: أى صبى هذا؟! أجاء معه من المجهول بأقباس من حكمة الغيب؟ وقد أتقن مبادئ القراءة والكتابة والحساب بسرعة مذهلة، حتى قلت مرة للملكة تيى:

- إن تفوقه ليخيف معلمه.

وكنت أهرع إلى درسه بشغف وشوق وسرور وأتخيل ما يصدر عن عقله من عجائب إذا ما اعتلى يوما عرش أجداده. سوف يتفوق على والديه على رغم عظمتهما.

أجل. كان أمنحتب الثالث ملكا عظيما، بدّارا لتأديب العصاة، مقبلا وقت السلم على الطعام والشراب والنساء فى عصر عرف بالرخاء، وقد أنهكه ذلك قبل الأوان فوقع فى أسر العلل وفسدت أسنانه فكدرت صفو أيامه الأخيرة. أما تيى فكانت من أسرة نوبية كريمة، وشهدت لها الأيام بالقوة والحكمة حتى بزّت حتشبسوت نفسها. وبسبب من غرام زوجها بالنساء ولموت بكريها تحتمس ولعت بالصبى الضعيف المعجزة ولعا خرق المألوف فكانت له الأم والحبيبة والأستاذ. وكانت تحب الحكم أكثر من الحب فضحّت بقلبها فى سبيل السلطة، وقد

اتهمها الكهنة ظلما بأنها المسئول الأول عن انحراف ابنها الدينى، ولكن الحق أنها أرادت أن يلم ابنها بديانات آلهة بلاده جميعا، وكانت تحلم بأن يحل آتون محل آلهة الإمبراطورية بوصفه الشمس التى تنفث الحياة فى كل مكان، فتؤلف بين رعاياها برابطة الدين القوية لا بدافع القوة وحدها. كانت ترمى إلى وضع الدين فى خدمة السياسة من أجل مصر، ولكن ابنها آمن بالدين دون السياسة بخلاف ما قصدت، وأبت طبيعته أن يجعل الدين فى خدمة أى شىء وأن يجعل كل شىء فى خدمة الدين. الأم طرحت سياستها عن وعى وتدبير، ولكن الابن صدق وآمن وكرس حياته لرسالته حتى ضحى بوطنه وإمبراطوريته وعرشه.

وسكت آى قليلا فحبك وشاحه الأزرق حول صدره وقد بدا وجهه صغيرا مضغوطا تحت شعره المستعار، ثم واصل حديثه:

- كان فذا منذ صباه كأنما ولد بعقل كاهن ناضج، كان معجزة حتى وجدتنى فى كثير من الأحايين أناقشه مناقشة الند للند وهو فى العاشرة. وكان الحماس يتدفق من منطقه كأنه ينابيع ساخنة، وبرزت فى الهيكل الضعيف إرادة قوية لا تتوافق بحال مع ضعفه، فأقنعنى ذلك بأن روح الإنسان أقوى من عضلاته المشدودة المدربة آلاف المرات. وهام بالدروس الدينية هياما فاق كل توقع وأضر بالإعداد اللازم له للجلوس على العرش. ولم يكن يسلم بفكرة دون مناقشة قوية، ولم يخف ارتيابه فى كثير من الحقائق والتعاليم الموروثة. و إذا به يقول لى ذات يوم:

- طيبة! تقولون إنها المدينة المقدسة! إنها وكر التجار الجشعين والفسق والعهر، ومن هم هؤلاء الكهنة الكبار يا معلمى؟ ألا إنهم من يضلون البسطاء بالخرافات، ويشاركون الفقراء فى أرزاقهم المحدودة، ويغوون الفتيات باسم البركة، فجعلوا من معبدهم مرتادا للدعارة والعربدة، عليك اللعنة يا طيبة!

وأقلقني قوله، وتخايلت لعيني أصابع الاتهام وهي تشير إليّ بوصفي معلمه، فقلت له:

- إنهم الأساس المتين الذي يقوم عليه العرش.

فهتف غاضبا:

- لا كرامة لعرش يقوم على الكذب والفجور.

فقلت كالمحذر:

- إنهم قوة لا يستهان بها مثل الجيش..

فهتف ساخرا:

- وقطاع الطرق أيضا قوة لا يستهان بها.

من بادئ الأمر لم ينشرح صدره لآمون الثاوي في قدس الأقداس، فتطلع إلى آتون الذي يضيء نوره العالمين، وقال في ذلك:

- آمون إله الكهنة، آتون إله السماء والأرض.

فقلت بحرارة:

- إنك مطالب بالإخلاص لجميع الآلهة.

فتساءل مقطبا:

- أليس لنا قلوب نميز بها بين الحق والباطل؟

فقلت بإغراء:

- سوف تتوج ذات يوم بين أحضان آمون.

فبسط ذراعيه النحيلتين متسائلا:

- ولم لا أتوج تحت نور الشمس في الهواء الطلق؟!

- آمون هو الذي ساند جدك حتى قيض له النصر.

فتفكر مليا، ثم تساءل:

- لا أدري كيف يعين إله على ذبح مخلوقاته؟

فقلت بقلق:

ـ له حكمته المضنون بها على البشر.

ـ الشمس لا يفرّق نورها بين مخلوق وآخر.

فقلت بإصرار:

ـ الحياة ميدان صراع، لا تنس ذلك.

فقال بأسى:

ـ يا معلمى لا تحدثنى عن الصراع، ألم تشهد الشمس عند شروقها فوق الحقول والنيل؟! ألم تر الشفق عند المغيب؟ ألم تسمع تغريد البلابل وهديل الحمام؟ ألم تقتنص قط الفرحة المقدسة الغائبة فى أعماق حياتنا؟!

شعرت بأن الزمام يفلت من يدى، وأن الشجرة تنمو على هواها، وأننى أُجَرّ إلى مأزق، فأفضيت بمخاوفى إلى الملكة تيى، ولكنها لم تشاركنى قلقى وقالت لى:

ـ يا آى، ما زال طفلا بريئا، سوف يخبر الدنيا، وعما قليل سيتلقى تدريبه العسكرى.

ودعى الكاهن الصغير إلى الجندية الخاصة ضمن أبناء السادة النبلاء مثل حور محب، ولكنه لم يتناغم معها، أو لم يجد القوة اللازمة لها، فكرهها، وسجل على نفسه فشلا لا يليق بأبناء الملوك. وقال بمرارة:

ـ لا أود أن أتعلم مبادئ القتل.

وحزن لذلك أبوه حزنا شديدا، وقال لى:

ـ إن الملك الذى لا يحسن القتال يقع تحت رحمة قواده.

وحدثنى الفتى عن مشاحنات نشبت بينه وبين أبيه، ولعله منذ ذلك الوقت ترسبت فى أعماقه مشاعر غير طيبة عن أبيه العظيم، وهى التى غالى الكهنة فيما بعد فى تفسيرها متهمين إياه بقتل أبيه بعد موته بمحو

اسمه من الآثار، والحق أنه لم يمح اسم أبيه إلا لاقترانه بآمون، وآى ذلك أنه أعدم اسمه القديم واتخذ اسما جديدا هو«إخناتون». ثم بلغ ذروة غربته مقتلعا نفسه من كافة جذوره فى ليلة غريبة لم يطلع عليها سواه. تم ذلك فى الخلوة التى كان ينتظر فيها الشروق بحديقة القصر المطلة على النيل. وعلمت بما كان عندما لقيته فى الحديقة فى الصباح. أغلب الظن أننا كنا فى الربيع فى يوم برىء من الرطوبة والخماسين.

رنا إلىّ بوجه شاحب وعينين مسحورتين، وقال لى دون أن يرد تحيتى:

- يا معلمى، قد تجلى الحق!

عجبت لمنظره وسألته عما يعنى، فقال:

- كنت فى الخلوة قبيل الشروق، رفيق الليل يودعنى والصمت يباركنى، وخف وزنى فخيل إلىّ أننى سأمضى مع ذيول الليل، وتجسدت الظلمة كائنا حيا يومئ بالتحية، وأشرق فى داخلى نور طيب الرائحة، فرأيت الكائنات كلها مجتمعة فى مجال تحيط به العين، تتهامس متبادلة التهانى تهزها سعادة الترحيب، وتستقبل الحقيقة المقبلة، وقلت لنفسى: أخيرا انتصرت على الموت والألم، وانهلّت فوقى فيوضات السرور، وتسلل الوجود إلى صدرى فملأه برحيقه العذب، وسمعت بكل وضوح صوته وهو يقول لى: «أنا الإله الواحد، لا إله غيرى، أنا الحق، اقذف بروحك فى رحابى، اعبدنى وحدى، وهبنى ذاتك فقد وهبتك حبى».

تبادلنا النظر طويلا. غلبنى الصمت، واليأس. قال:

- ألا تصدقنى يا معلمى؟

فقلت صادقا:

- إنك لا تكذب أبدا.

فقال بنشوة عجيبة :

ـ إذن فعليك أن تصدقنى .

فسألته بلهفة :

ـ وماذا رأيت؟

ـ سمعت الصوت فى مهرجان الفجر . .

فقلت بعد تردد :

ـ هذا يعنى أنه لا شىء

فقال بيقين :

ـ هكذا يتراءى الكل إذا تجلى !

ـ لعله آتون؟

ـ كلا ، لا آتون ولا الشمس ، إنه ما وراء ذلك وما فوق ذلك ، إنه الإله الواحد .

فتساءلت فى حيرة :

ـ وأين تعبده؟

ـ فى أى مكان ، فى أى زمان ، وسوف يمدنى بالقوة والحب . .

ولاذ آى بالصمت . وددت أن أسأله إن كان آمن بإله إخناتون . ولكنى تذكرت وصية أبى فأمسكت . لقد ارتد فى اللحظة الحرجة مع المرتدين وربما ظل إيمانه سرا إلى الأبد . واستأنف آى حديثه قائلا :

ـ لم أجد بدّاً من إبلاغ الملك والملكة بما كان . وبعد أيام وجدت الأمير ينتظرنى فى الحديقة التى يفضل البقاء فيها ما أمكنه ذلك ، فقال لى معاتبا وباسما :

ـ وشيت بى كعادتك يا معلمى .

فقلت بهدوء :

- إنه واجبى أيها الأمير .

وضحك قائلا :

- استدعانى أبى لمقابلة مثيرة ، فرويت له تجربتى ، فعبس قائلا :

- لا مفر من عرضك على الطبيب بنتو .

فقلت له بأدب :

- إنى فى تمام الصحة والعافية .

فقال بخشونة :

- لا أعرف مجنونا اعترف بجنونه أبدا .

ثم بنبرة وعيد :

- مصر بلد الآلهة ، وعلى صاحب العرش أن يعبد جميع آلهة شعبه . وهذا الإله الذى تحدثنى عنه لا شىء ؛ فهو لا يستحق أن ينضم إلى مجمع الآلهة .

فقلت بهدوء :

- إنه الإله الوحيد ولا إله غيره .

فصاح بى :

- هذا كفر وجنون .

فكررت قولى حتى قال بنبرة غاضبة منذرة بالشر :

- إنى آمرك بأن تتخلى عن أفكارك وأن ترجع إلى تراث أجدادك .

وانقطعت عن المناقشة احتراما لأمره ، وقالت الملكة بنبرة لطيفة :

- إنك مطالب باحترام واجب مقدس ، ولينبض قلبك بما يشاء حتى تثوب إلى الهداية . .

وغادرت مجلسهما حزينا يا معلمى ولكن أشد إصرارا . .

فقلت له بإخلاص :

ـ فرعون نسيج محكم من التقاليد المقدسة، لا تنس هذا أبدا.

وحدثني قلبي بأن مصر ستشهد متاعب لم تخطر ببال، وأن هذه الأسرة المجيدة التي حررت الوطن وأنشأت له إمبراطورية إنما تقف على حافة هاوية. وفي ذلك الوقت، وربما قبل ذلك فلست متأكدا من ترتيب التواريخ. استدعاني كاهن آمون إلى مقابلة خاصة. قال لي:

ـ بيننا عهد قديم يا آي، ما هذا الذي يقال؟

ـ قلت لك إنني لا أذكر اليوم إن كانت تلك المقابلة قد تمت عقب ما ذاع عن ميل الأمير لآتون أم عقب إيمانه بالإله الواحد. على أي حال قلت له:

ـ الأمير يمر بالفترة الحرجة من العمر، إنه إنسان ممتاز، ومثله قد يدفعه الخيال شرقا وغربا، ولكن سرعان ما يرجعه النضج إلى الحق..

فتساءل بمرارة:

ـ وكيف تمرد على حكمتك وأنت خير المعلمين؟

فقلت مدافعا عن نفسي:

ـ ما أصعب ترويض النهر في إبان الفيضان!

فقال بصوت قوي:

ـ على أي رجل من صفوة هذه الأرض ألا يغفل لحظة عن مصير العقيدة والوطن والإمبراطورية!

وجعلت أناجي حيرتي ليل نهار منفردا ومع أسرتي المكونة من تي زوجتي ونفرتيتي وموت نجمت ابنتي. وعلى حين اتهمت تي وموت نجمت الأمير بالضلال إذا بنفرتيتي تنجذب إلى آرائه بتلقائية مثيرة، وتهمس في أذني:

ـ إنه الحق يا أبي!

ولا بد من كلمة هنا عن نفرتيتى. كانت تقارب إخناتون فى سنه، ومثله حازت عقلا يفوق سنها. وقد تلقت البنتان تربية عامة ومنزلية ممتازة، ولكن موت نجمت قنعت بتجويد القراءة والكتابة والحساب وشيء من اللاهوت إلى الحياكة والتطريز والطهى والرسم والرياضة والرقص الدينى، أما نفرتيتى فمع إتقانها ذلك كله تبحرت بدافع شخصى فى الدين والأفكار. ثم كان ميلها إلى آتون، والأعجب من ذلك كله أنها آمنت بإله إخناتون، وقالت بصراحة:

- هذا هو الإله الذى انتشلنى من حيرتى المعذبة.

وأثارت بذلك سخط تى مربيتها وأختها غير الشقيقة موت نجمت التى اتهمتها بالضلال.

وحدث فى ذلك الوقت أن احتفل الملك بمرور ثلاثين عاما على جلوسه على العرش فذهبنا إلى القصر واصطحبنا البنتين معنا لأول مرة. وشاء القدر أن تستحوذ نفرتيتى على قلب الأمير، وهكذا تزوجت من إخناتون ونحن نتابع الأحداث بذهول ولا نصدق ما يقع. واستدعانى كاهن آمون مرة أخرى وقال لى بنبرة ذات مغزى:

- أصبحت عضوا فى الأسرة المالكة يا آى.

وشعرت بأنه يوشك أن يعدنى من الخصوم فدافعت عن الأمير ما وسعنى ذلك، وقلت له:

- إنى رجل لم يحد طيلة عمره عن الواجب.

فقال بهدوء:

- لندع الأيام تكشف لنا عن معدن الرجال!

وطلب منى أن أعد مقابلة بينه وبين نفرتيتى ففعلت بعد أن زودت ابنتى بالوصايا. ولكنها والحق يقال لم تكن فى حاجة إلى وصاياى فأسمعته كلاما جميلا دون أن تكشف عن سر أو تلتزم بعهد. وأعتقد أن عداء الكهنة لابنتى بدأ مع تلك المقابلة.

وقالت لى نفرتيتى :

ـ لم تكن مقابلة يا أبى ، ولكنها كانت مبارزة غير معلنة . الداهية يدافع عن الإمبراطورية على حين أنه يدافع فى الواقع عن نصيب معبده من الأغذية والكساء والخمور .

وتراكمت فى الأفق سحب الكآبة ، واشتد النزاع بين الملك وولى العهد ، ، وأخيرا استدعانى الملك وقال :

ـ أرى أن يقوم الأمير برحلة فى أرجاء الإمبراطورية ليخبر بنفسه الحياة والناس . .

فقلت باقتناع :

ـ فكرة طيبة يا مولاى!

كان الملك يقضى فى ذلك الوقت أسعد أيامه الأخيرة مع عروس فى سن أحفاده هى تادوخيبا بنت توشراتا ملك ميتانى ، وإن كانت وبالا على صحته! أما إخناتون فقد غادر طيبة مصحوبا ببعثة من صفوة الرجال . كانت رحلة عجيبة حافلة بالإثارة . سعى إلى عبيده فى الميادين والحقول ملقيا عليهم مودة وبشاشة أذهلتهم ، وكانوا ولا شك يتوقعون أن يمثلوا بين يدى إله جبار ينظر إليهم من عل أو لا ينظر إليهم على الإطلاق . ودعا إلى لقائه رجال الدين فى الولايات المختلفة ولم ين عن تسفيه عقائدهم وإدانة الطقوس التى تبيح تقديم قرابين من البشر . وبشر بإلهه الواحد ، القوة الكائنة فى قلب الوجود ، الخالقة للجميع على السواء والتى لا تفرق بين رعاتهم ونبلاء مصر . كما دعا إلى الحب والسلام والسرور مؤكدا أن الحب هو قانون الحياة ، وأن السلام هو الهدف ، وأن السرور هو شكر المخلوق لخالقه .

فى كل مكان أثار الذهول والانفعالات الجنونية . وبلغ منى الذعر مداه ، فقلت له :

ـ أيها الأمير، إنك تقتلع الإمبراطورية من جذورها، وتنثرها فى الهواء.

فتساءل ضاحكا:

ـ متى يدخل الإيمان قلبك يا معلمى؟

فقلت بمرارة:

ـ لقد هاجمت الديانات التى جرى أجدادى على احترامها، وأعلنت المساواة والحب والسلام، ولن يعنى هذا بالنسبة للرعايا إلا فتح باب التمرد وشق عصا الطاعة..

وتفكر مليا، ثم تساءل:

ـ لماذا يؤمن العقلاء بالشر بكل هذه القوة؟!

فقلت بتسليم:

ـ نحن نؤمن بالواقع.

فقال باسما:

ـ يا معلمى، سأعيش فى الحق إلى الأبد..

وإذا برسول يلحق بنا وينعى إلينا الملك العظيم أمنحتب الثالث.

* * *

وهنا سرد علىّ أنباء العودة، والجنازة، وجلوس الأمير على عرش أجداده باسم أمنحتب الرابع، ونفرتيتى شريكته بوصفها الملكة العظمى، وكيف دعاهم الملك الجديد فعرض عليهم دينه وكيف أعلنوا إيمانهم به، وكيف عين نتيجة لذلك ماى قائدا لجيش الحدود، وحور محب قائدا للحرس، وهو ـ آى ـ مستشارا للعرش. وقد ورث الملك حريم أبيه كالمتبع فأحاطه بالرعاية والزهد! كما أمر بتخفيف الضرائب وبإحلال الحب محل العقاب. وكيف توتر الجو بينه وبين كهنة آمون

حتى أمره إلهه ببناء عاصمة جديدة له . وقد وقف آى عند إعلان الرجال إيمانهم بالإله الجديد وقفة تأمل ، فقال لى :

ـ ستسمع عن ذلك أقوالا متضاربة ، ولكن لا علم لأحد بأسرار القلوب!

وبدا أنه شعر بأنه مطالب بالكشف عن سر قلبه هو ، فقال :

ـ عن نفسى آمنت بالإله الجديد بوصفه إلها يمكن ضمه إلى بقية الآلهة ، وكنت أرى أنه لا يجوز التعرض إلى حرية العقيدة!

وقال معلقا على سياسة الحب إنه قال لمولاه :

ـ عندما يأمن الموظف من العقاب سيقع فى الفساد ويسوم الفقراء سوء العذاب .

ولكن الملك قال له بيقين :

ـ ما زلت ضعيف الإيمان وسوف ترى بنفسك ما يفعله الحب ، ولن يخذلنى إلهى أبدا .

* * *

وقال آى مواصلا حديثه :

ـ انتقلنا إلى أخت آتون العاصمة الجديدة ، لم ولن ترى العين أجمل منها ، وأقيمت أول صلاة بالمعبد القائم فى وسط المدينة ، وأمسكت نفرتيتى بالطنبور متألقة الشباب والجمال وراحت تغنى بصوت رخيم :

يا حى يا مبدئ الحياة

ملأت الأرض كلها بجمالك

وقد قيدتنا بحظبك!

واستقبلنا أياما أعذب من الأحلام ، حافلة بالهناء والسرور والحب

والرخاء. وتفتحت القلوب حقّا للإيمان الجديد. ولكن الملك لم ينس رسالته. وباسم الحب والسلام والسرور خاض أشرس حرب ابتليت بها مصر. فما لبث أن أمر بإغلاق المعابد ومصادرة الآلهة ومحو أسمائها من الآثار، حتى اسمه غيّره، وقام برحلاته المشهورة فى أنحاء البلاد داعيا إلى دينه، دين الواحد والحب والسلام والسرور. وعجبت لاستقبال الناس له فى كل مكان بالحماس والحب. وانطبعت صورته وصورة نفرتيتى فى القلوب كما لم تنطبع صورة فرعون آخر من الفراعين الذين سمع الناس عنهم ولم يروهم.

ثم أخذت الأحزان تزحف، مترددة أول الأمر ثم انهلّت كالشلال. مدت قبضتها أول ما مدت إلى أحب بناته إلى قلبه، ابنته الثانية، ميكيتاتون الجميلة، فجزع لموتها جزعا شديدا، وبكاها بدموع غزيرة أشد مما بكى أخاه تحتمس فى صباه، وجعل يصرخ من قلب مكلوم:

- لماذا يا إلهى ؟! لماذا يا إلهى؟!

حتى توهمت أنه على وشك الكفر به. ثم ذاعت أنباء الفساد فى دواوين الحكومة والأسواق، وترامى إلى الأسماع أنين الفقراء. ثم جاءتنا أخبار الإمبراطورية بتمرد الولايات وتحرش الأعداء بالحدود حتى قتل صديقنا توشراتا ملك ميتانى.. والد تادوخيبا. وقدمت نصيحتى قائلا بإلحاح:

- لا بد من التطهير فى الداخل وإرسال جيش الحدود للدفاع عن الإمبراطورية..

ولكنى وجدته صامدا ثابتا لا يتغير ولاييأس. قال لى:

- سلاحى الحب يا آى، اصبر وانتظر..

كيف أفسر هذه الظاهرة الغريبة؟

الكهنة يتهمونه بالجنون، وبعض رجاله شاركوهم فى هذا الاتهام فى

الأيام الأخيرة من الأزمة. ولقد حرت فى أمره، ولكننى رفضت وما زلت أرفض ذلك الاتهام. لم يكن مجنونا، ولكنه لم يكن أيضا مثل سائر العقلاء، كان شيئا بين هذا وذاك لم أعرف كنهه. وزارتنا الملكة الوالدة تيى وسُرَّ الملك بالزيارة سرورا فاق كل تصور، واستقبلها استقبالا لم تشهد أخت آتون له مثيلا. ونزلت الملكة فى قصر شيد لها خصيصا فى جنوبى أخت آتون وظل خاليا فى انتظارها. واستدعتنى فاجتمعت بها وقد ساءنى أن ألاحظ تدهور صحتها وغلبة الكبر عليها أضعاف ما تقتضيه سنها الحقيقية. قالت:

- جئت لحديث طويل معه، ولكنى رأيت أن أمهد لذلك بحديث مع رجاله.

فقلت:

- لم أقصر فى واجبى كمستشار أمين.

فقالت:

- أصدقك يا آى، ولكن تراثنا لا يمكن أن يضيع هدرا، ولكنى أريد أن تصارحنى بأمانة، هل تظل وفيا لابنى مهما حدث؟

فقلت بصدق:

- لا يداخلك شك فى ذلك.

- هل يمكن أن تفترق عنه عند نقطة معينة ترى أنها تعفيك من الولاء؟

فقلت بإخلاص:

- إنى عضو فى أسرته فلا أتخلى عنه أبدا.

فقالت متنهدة:

- شكرا لك يا آى، الحال خطيرة جدّا، هل تثق بإخلاص الآخرين بنفس القوة؟!

فتفكرت قليلا، ثم قلت:

ـ بعضهم على الأقل لا يرتقى إليهم شك .

فقالت بتوجس :

ـ يهمنى أن أسمع رأيك فى حور محب خاصة؟

فقلت دون تردد :

ـ قائد مخلص وزميل صبا الملك . .

فقالت بكآبة :

ـ هو من يقلقنى يا آى . .

ـ ربما لأنه صاحب القوة ، ولكنه لا يقل إخلاصا للملك عن مرى رع .

وحصل اللقاء بين تيى وبين الملك ، ولكنها فشلت مثلنا ، ورجعت إلى طيبة خائبة الرجاء ، ثم ساءت حالتها الصحية وماتت تاركة وراءها تاريخا ملكيا بالغ الروعة .

ومضت الأحوال من سيئ إلى أسوأ حتى نفضت جميع الأقاليم عنها الولاء للملك ، وبتنا محاصرين فى سجن اسمه أخت آتون نحن وإلهنا الواحد! وشعر كل واحد بدنو الكارثة إلا إخناتون الذى جعل يقول بكل ثقة :

ـ لن يخذلنى إلهى!

وإذا بكاهن آمون الأكبر يقتحم المدينة معتمدا على قوة لا قبل لنا بها . وكنت أنا أول من تسلل إلى قصر الكاهن . ودهشت وأنا أتفرس فى وجهه وهو متنكر فى زى تاجر . وقلت له :

ـ لماذا تتخفى وأنت تعلم أن الملك لا يؤذى أحدا؟

فتجاهل قولى وقال لى بلهجة حازمة :

ـ دبر لى لقاء مع رءوس الرجال . .

واجتمع بنا فى حديقة قصر الملكة الراحلة تيى، ولم يخف عنا أنه يتكلم من موقع القوة، وأنه يطالبنا بأن نتعاون معه على حقن الدماء، وتركنا بعد أن ألقى إنذاره الأخير كأنه حية تسعى تحت أرجلنا. وقد حرت فى تفسير سلوك الرجل؛ لأننى لم أكن أحسن به الظن. واستشفت وراءه حقيقة لم يبح بها وهى أنه لم يكن واثقا بولاء كل جيوش الأقاليم ومشفقا من مغبة فوضى عسكرية ضارية تنتهى بهزيمة له أو بنصر فادح الثمن. غير أننى اقتنعت بأن الخطر الذى يتهدده لا يقل عن الخطر الذى يتهددنا، وأن مصر هى الخاسرة فى الحالين. ولم يتقوض الاجتماع بذهابه. شعرنا جميعا بأننا مطالبون باتخاذ قرار.

ورغما عنى وجدتنى أسأله مقاطعا لأول مرة:

- من شهد ذلك الاجتماع من رجال الملك؟

فضيق عينيه الباهتتين، ثم قال:

- لم أعد أتذكر، مضت أعوام وأعوام، ولك كان بينهم حور محب وناخت وربما توتو وزير الرسائل أيضا، على أى حال ان حور محب أول المتكلمين فقال:

- إنى صدقه وقائد حرسه!

- لم أعد أتذكر، مضت أعوام وأعوام، ولكن كان بينهم حور محب وناخت وربما توتو وزير الرسائل أيضا، على أى حال كان حور محب أول المتكلمين فقال:

- إنى صديقه وقائد حرسه!

وقلب عينيه البنيتين فى وجوهنا، وقال بهدوء وتصميم:

- لا مفر من حسم الموقف لإنقاذ البلاد.

ولم ينبس أحد باعتراض. وطلبنا مقابلة رسمية. وأدينا فروض

التحية التقليدية أمام العرش. وكان إخناتون يبتسم، أما نفرتيتى فتبدت جامدة عاطلة من تألقها المألوف. وابتدرنا إخناتون:

ـ ليس وراءكم خير!

فقال حور محب:

ـ جئنا من أجل خير مصر يا مولاى.

فقال بهدوء ويقين:

ـ إنى أعمل لخير مصر ولخير العالم كله.

فقال حور محب:

ـ إنى أعمل لخير مصر ولخير العالم كله.

فقال حور محب:

ـ البلاد على شفا حرب مهلكة، ولابد من قرار حازم لتجنيبها ويلات الخراب.

فسأله الملك:

ـ هل لديكم اقتراح؟

فقال:

ـ لا مفر من إعلان الحرية للأديان، وإصدار أمر لجيش الحدود بالدفاع عن الإمبراطورية..

فهز الملك رأسه المتوج بتاج القطرين وقال:

ـ هذا يعنى الارتداد إلى الكفر وما يحق لى أن أصدر قرارا إلا تنفيذا لإرادة إلهى الخالق الواحد.

فقال حور محب بجرأة:

ـ من حقك يا مولاى أن تحتفظ بعقيدتك، ولكن عليك فى تلك الحال أن تتنازل عن العرش..

فقال بإصرار وعيناه تتوهجان كضوء الشمس :

ـ هيـهـات أن أرتكب خـيـانة فى حق إلهـى المعـبود بالتـخلى عن عرشه!

وحوّل إخناتون عينيه إلىّ فشعرت بأننى أغوص فى أعماق الجحيم، ولكننى قلت :

ـ إنه السبيل الوحيد للدفاع عنك وعن عقيدتك.

فقال الملك بأسى :

ـ اذهبوا بسلام.

ولكن حور محب قال :

ـ بل نترك لك مهلة للتأمل.

وغادرت قاعة العرش مع من غادرها وأنا أعانى من وخز قلق لعله لم يفارقنى حتى اليوم. وفى أيام متقاربة تلاحقت أحداث خطيرة. هجرت نفرتيتى القصر الفرعونى واعتزلت فى قصرها شمالى أخت آتون. وقابلتها مستطلعا، ولكنها قالت لى بإيجاز غامض :

ـ لن أغادر قصرى حتى الموت.

وأبت أن تضيف كلمة إلى ذلك. أما إخناتون فقد أعلن جلوس أخيه سمنخ رع شريكا له على عرشه، غير أن كهنة طيبة بايعوا توت عنخ آمون الأخ الثانى ملكا معلنين بذلك عزلهم لسمنخ رع وإخناتون نفسه، وبدا أنه لا خيار فإما التسليم بالأمر الواقع وإما الحرب. وقابل حور محب الملك فوجده مصراّ على موقفه، وقال له :

ـ لن أخون إلهى، وهو لن يخذلنى، سأصمد فى مكانى ولو وحدى..

فقال له حور محب :

ـ نستأذنك يا مولاى فى هجر أخت آتون والرجوع إلى طيبة، بذلك

تعود الوحدة للبلاد ويختفى شبح الخراب، وأتعهد لك بأنه لن يمسك الأذى حيا أو ميتا، وما دفعنا إلى ذلك إلا الرغبة فى إنقاذ البلاد وإنقاذك.

فقال إخناتون وهو يشتعل بالإصرار والحماس:

- افعلوا ما بدا لكم، لن ألومكم على ضعف إيمانكم، ولست فى حاجة إلى حماية أحد فإلهى معى، وهو لن يخذلنى..

ونفذنا قرارنا فى وجوم وحزن، وسرعان ما اقتدى بنا أهل المدينة حتى خلت من الأحياء، إلا إخناتون فى قصره، ونفرتيتى فى قصرها، ونفر من الحراس والعبيد. وما لبث أن غزا المرض الجسد الذى لم يعرف الراحة مذ شب على قدميه، فمات وحيدا، وكان يغمغم وهو يحتضر:

يا خالق الجرثومة فى المرأة

وصانع النطفة فى الرجل

ومعطى الحياة للوليد فى بطن أمه

لا يعرف الوحدة من يذكرك

وإذا غاب عنك الوعى

صارت الأرض فى ظلمة

كأنها موات

وسكت آى ليسترد ذاته من تيار الذكريات، ثم نظر نحوى بعطف وقال:

- هذه هى قصة إخناتون الذى يدعى اليوم إذا ذُكر بالمارق وتصب عليه اللعنات. ولا أستطيع أن أهون من الخسائر التى خاقت بالبلاد بسببه فقد خسرت إمبراطوريتها ومزقتها الخلافات، ولكنى أعترف لك بأننى لا أستطيع أيضا أن أنزع من قلبى حبى له وإعجابي به،

فلندع الحكم النهائى عليه للميزان أمام عرش أوزوريس حاكم العالم الأبدى .

* * *

وغادرت قصر الحكيم آى وأنا أعتقد أن الحكم النهائى عليه هو أيضا لن يعرف إلا حين يوضع قلبه فوق كفة الميزان أمام عرش أوزوريس .

حور محب

متوسط القامة، متين البنيان، ذو مظهر يوحى بالقوة وصدق العزيمة، سليل أسرة كهنوتية متوسطة بمنف غنية بمن عرف من رجالها من أطباء وكهنة وضباط، وكان أبوه أول من ارتفع من الأسرة إلى مستوى السادة لشغله وظيفة «رئيس الجياد» فى بلاط أمنحتب الثالث. وهو الرجل الوحيد من رجال إخناتون الذى احتفظ بوظيفته كقائد للحرس فى العهد الجديد، ووكل إليه بمهمة القضاء على الفساد فى داخل البلاد وإعادة الأمن إلى ربوعها فأحرز فى ذلك نجاحا مرموقا. وقد شهد له كاهن آمون الأكبر، وصدق على ذلك الحكيم آى، بأنه كان بطل اللحظة الحرجة فى مأساة العهد البائد. استقبلنى فى قاعة استقباله المتصلة بحديقة القصر، وأنشأ يحدثنى عن«المارق» قائلا:

- كان رفيق صباى، وصديقى، قبل أن يصير مليكى، ومذ عرفته وحتى الساعة التى ودعته فيها إلى الأبد لم يكن له ما يشغله فى هذه الدنيا سوى الدين.

وراح يستجمع أفكاره مليا، ثم استمر قائلا:

- أوليته الاحترام الذى يستحقه مذ عرفته، ذلك أنى ربيت على تقديس الواجب، وعلى وضع الشىء فى موضعه بصرف النظر عن عواطفى الشخصية، وكان هو ولى العهد وكنت أنا أحد رعاياه، فلزمنى احترامه، أما باطنى فقد احتقره، احتقرته لضعفه والأنوثة

الضاربة فى وجهه وجسده، ولم أتصور أن أكون له صديقا حقيقيا، غير أن الواقع أننى صرت صديقه بكل معنى الكلمة. وإنى لأتساءل كيف كان ما كان؟ ربما لأننى عجزت عن مقاومة عواطفه الرقيقة المهذبة ذات السحر النافذ. كان ذا مقدرة عجيبة على اصطياد القلوب وأسر النفوس، ألم يهتف له الشعب وهو يدعوه إلى الكفر بآلهة الآباء والأجداد؟ وكنا ـ هو وأنا ـ على طرفى نقيض، فلم يمنع ذلك عواطفنا من أن تتجسد فى صورة صداقة متينة، صمدت للأعاصير حتى ارتطمت آخر الأمر بصخرة لا تقهر. إنى أسمعه وهو يقول لى باسما:

ـ حور محب، أيها الوحش المتعطش للدماء، إنى أحبك.

وعبثا حاولت أن أعثر على شىء مشترك بيننا. دعوته كثيرا إلى الصيد وهو رياضتى المفضلة فكان يقول لى:

ـ لا تدنس الحب الذى ينبض به قلب الوجود.

لم يكن يعجب بالزى العسكرى فكان يرمق سروالى القصير وقلنسوتى وسيفى ويتساءل متهكما:

ـ أليس عجيبا أن يدرب أناس مهذبون على القتل ليحترفوه بعد ذلك؟

حتى قلت له مرة:

ـ ترى ما رأى جدك العظيم تحتمس الثالث فيما تقول؟

فهتف:

ـ جدى العظيم! أقام عظمته على هرم من جثث المساكين، انظر إلى صورته المنقوشة على جدار المعبد وهو يقدم القرابين من الأسرى إلى آمون، فأى جد عظيم وأى إله دموى..

وقلت لنفسى: إنه يقبل كصديق رغم شذوذ آرائه ولكن كيف يجلس

بها على العرش؟! لم أستطع قط أن أهضمه كفرعون من فراعين مصر، ولم أتحول عن رأيى هذا فى أى وقت من الأوقات، ولا أستثنى من ذلك أهنأ الأوقات، وأحفلها بالسرور، بل لعله تبدى لعينى فى تلك الأيام السعيدة أوغل فى البعد عن هيبة الفراعنة ومجدهم الخالد. وحدث أن انتدبت لتأديب بعض العصاة فى طرف من أطراف الإمبراطورية قائدا لأول مرة لحملة عسكرية. وهناك أحرزت نصرا حاسما فرجعت بالغنائم والأسرى. ونلت الجزاء تكريما نبيلا من مولاى أمنحتب الثالث. وهنأنى الأمير بسلامة العودة فدعوته لمشاهدة الأسرى. واستعرضهم وهم وقوف شبه عرايا يرسفون فى الأغلال. رنا إليهم طويلا فنظروا نحوه مستعطفين كأنما لمسوا الضعف فى أعماق نظرته. وأظلت وجهه غمامة كآبة، وقال لهم برقة:

- اطمئنوا فلن يمسكم أذى!

وهاج خاطرى؛ لأننى كنت على يقين من أنهم سيلقون ألوانا من التأديب حتى يتعودوا على النظام والعمل. ولما رجعنا معا سألنى باسما:

- أأنت فخور بما صنعت يا حور محب؟

فقلت بصراحة:

- إنى أستحق ذلك أيها الأمير.

فتمتم فى غموض:

- يا لها من مشكلة!

ثم ضحك قائلا فى دعابة:

- ما أنت إلا قاطع طريق يا حور محب!

ذلك كان ولى العهد المرشح للجلوس على العرش. على ذلك فقد شدنى إلى صداقته وحبه، وأغرانى دائما بمتابعة أفكاره التى لم أتأثر بها

قط، كمن يتابع صوتا غريبا لا ينتمى للبشر. ومازلت حتى الساعة أتساءل فى حيرة: كيف صادقته وكيف أحببته؟! وبهذه المناسبة أذكر مناقشة دينية جرت بيننا أمام خلوته بحديقة القصر الملكى. سألنى:

ـ لماذا تصلى يا حور محب فى معبد آمون؟

فأُخذت للسؤال، خاصة وأننى لم أملك إجابة ترضيه أو ترضينى. ولما وجدنى صامتا سألنى:

ـ هل تؤمن حقّا بآمون وما يقال عنه؟

فتفكرت قليلا، ثم قلت:

ـ لا كما يؤمن الناس به!

فقال بجدية:

ـ إيمان أو لا إيمان، ولا ثالث بينهما.

فقلت بصراحة:

ـ لا أهتم بالدين إلا باعتباره من تقاليد مصر الراسخة.

فقال بثقة مثيرة:

ـ إنك تعبد ذاتك يا حور محب.

فقلت بتحد:

ـ قل إنى أعبد مصر.

ـ ألم يساورك إغراء لمعرفة سر الوجود؟

فقلت بمرارة:

ـ إنى أعرف كيف أمحق هذا الإغراء.

ـ يا للخسارة! وماذا فعلت من أجل روحك؟

فقلت متبرما بالمطاردة:

ـ إنى أقدس الواجب، وقد شيدت لى مقبرة!

فقال متنهدا :

ـ أتمنى يوما أن تذوق سرور القرب .

فتساءلت فى دهشة :

ـ القرب؟ !

ـ القرب من خالق الوجود الواحد .

فتساءلت فى شىء من الاستهانة :

ـ ولم يكون واحدا؟

فقال بهدوء :

ـ إنه أقوى وأجل من أن يوجد شريك له .

ذلك الشاب المهزول ، الذى يتجنب القصر ويهيم بالحديقة . المولع بالأزهار والغناء والطيور مثل فتاة مهذبة . لم لم يخلق أنثى؟ لقد همت الطبيعة بأن تفعل ذلك ، ولكنها عدلت عنه فى اللحظة الأخيرة لسوء حظ مصر .

وسكت حور محب وقتا ، ثم واصل الحديث :

ـ وتوكد مصيره بزواجه من نفرتيتى . ظهرت لأول مرة فى القصر الفرعونى فى الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على جلوس الملك على العرش فبهرت الأعين بجمالها وشخصيتها ، واشتركت فى الرقص مع بنات السادة ، وغنت بصوت رخيم :

أخى ما أحلى الذهاب إلى البحيرة

والاغتسال على مرأى منك

لترى جمالى فى ثوبى الكتانى الرقيق

حينما يبْتل ويلتصق بجسدى

تعال وانظر إلىّ

ولا أشك فى أن آى وتى زوجته أحسنا تقديم كريمتهما، ومهدا لها الطريق إلى العرش. ولا تنس أن آى كان معلم الأمير ومرشده فلاحت له ولا شك الفرص للتأثير فى شخصية ضعيفة متهالكة وإيقاعها فى الشرك. على أى حال فازت نفرتيتى فى الحفل بإعجاب الأمير وأمه الملكة تيى معا. وسرعان ما زفت نفرتيتى إلى الأمير. وأذكر أن كاهن آمون قال لى فى حفل الزفاف:

- لعل الزواج يصلح ما أفسده تهور الشباب.

فقلت له ببرود:

- إنها كما ترى من أصل شعبى، وما كانت تحلم بالعرش، ولن تجازف أبدا بإغضاب زوجها الملك!

وقد ساءلت نفسى: ترى أكانت نفرتيتى ترضى بالأمير زوجا لو لم يكن وليا للعهد؟! الحق أنه لا يمكن أن يكون فارس أحلام أى فتاة ولو كانت فلاحة ساذجة. وقد ازداد الأمير بعد الزواج تحديا للتقاليد. وعلمت متأخرا بعض الوقت بادعاءاته الغريبة عن تجلى إلهه له وسماع صوته، ورأيت المستقبل يتسربل بليل بهيم. وبازدياد التوتر غضب الملك أمنحتب الثالث وأمر بإرساله لزيارة الإمبراطورية.

* * *

هنا حدثنى بإسهاب عن مناقشاته الدينية، واتصاله بالرعايا وتبشيره بالمساواة والحب والدين الجديد دون إضافة جديدة إلى ما حدثنى به الحكيم آى.

* * *

وقال معلقا على الأحداث:

- ولأول مرة، ورغم الصداقة والولاء، تمنيت أن أقتله بسيفى قبل أن يجلب علينا الخراب. والحق أنى تمنيت قتله دون أن أضمر له أى

شعور بالكراهية. ومات أمنحتب الثالث واستدعى الأمير للجلوس على عرش تحتمس الثالث. وتولى العرش ودعا الرجال واحدا فى إثر واحد ليعرض عليهم دينه. ولما جاء دورى قال لى :

- لا بد من إعلان الإيمان بالإله الواحد لمن شاء أن يتعاون معى يا حور محب.

وبصراحتى المعهودة قلت له :

- مولاى، موقفى من الآلهة معروف لديكم، ولكنى رجل الواجب وخادم العرش، وإنى أعلن إيمانى بالإله الواحد؛ إخلاصا لعرشك، وخدمة لوطنى..

قال باسما :

- حسبى ذلك الآن، لا أحب أن يخلو قصرى منك يا حور محب، وسوف تتلقى رحمة الإيمان ذات يوم.

وبدأت حياة جديدة فى خدمة ملك جديد وإله جديد، وبإخلاص كامل غريب لأنه استند إلى الإيمان بالواجب وحده دون غيره. ولكن لا مفر من الاعتراف بأن الملك تكشف عن قوى خفية لم أعرفها فيه من قبل. رغم الضعف الجسدى والأنوثة الخلقية انطلقت منه عزيمة متحدية مثل ألسنة اللهب لا تدرى من أى مجهول استعارها، ناضل بها أقوى الرجال وهم الكهنة، وحطم بها التقاليد العريقة الراسخة والسحر والتعاويذ. وتكشفت نفرتيتى عن ملكة كأنما لم تخلق إلا كى تكون ملكة عظمى مثل: تيى وحتشبسوت، فكانت هى المدبرة لشئون الملك على حين تفرغ هو لرسالته. بيد أنها بدت لى - وللجميع - مؤمنة بالدين الجديد إيمانا فاق للأسف كل تصور. والحق لقد قيل عن هذه المرأة كل ما يمكن أن يقال، وأنا أكره شخصيا ترديد ما يقال عن الأمور الشخصية، ومع ذلك فإن إيمانها يبقى لغزا يطلب حلا. أحيانا لم أشك

فى صدقها، وأحيانا أخرى ساورتنى شكوك. هل تتظاهر بالإيمان محافظة على مركزها الرفيع؟هل تشجعه عليه لتستأثر وحدها بشئون الأرض والرعايا؟ أكان لأبيها فى ذلك دور خفى لعبه بيد ابنته؟ وقد حاول الكهنة أن يبصروها بالعواقب، ولكنها خيبت رجاءهم فصبوا عليها مقتهم حتى هذه الساعة. إنهم آمنوا بضعف إخناتون ولم يتصوروا به قدرة على التحدى أو النضال أو الابتكار. من أجل ذلك اتهموا أمه تيى بأنها خالقة أفكاره كما اتهموا نفرتيتى بأنها سر عناده وصلابته. وهى صورة خاطئة. لك أن تدين الجميع ولكن لا شك فى أن جميع الخزعبلات قد خرجت من رأس إخناتون نفسه. وبالانتقال إلى العاصمة الجديدة أخت آتون أعلن الملك حربه على جميع الآلهة. وانغمس فى التبشير لدينه فى جميع الأقاليم. وهادنتنا أيام نصر وسعادة ورخاء حتى خيل إلىّ أن هذا الشاب المتهافت قد قيض له أن يقوض بنيان الدنيا وأنه يعيد بناءه من جديد على مثال من صنعه وتخطيطه. تابعت غزواته للأقاليم واستقبال الجموع له بانبهار. آنست فى الجو قوة من نوع جديد تمارس بجدارة مذهلة. ولكننى لم أخل قط من شك فى العالم الجديد الذى يتخلق فيما يشبه الاكتساح. أيصمد هذا العالم للزمن؟! هل يمكن أن تتوازن الأمور على سنة الحب والسلام والسرور؟! وأين تذهب حقائق الحياة وتجاربها؟ وقالت لى نفرتيتى مرة وهى قارئة للأفكار:

ـ إنه ملهم، ولن يخذله إلهه الذى أغدق عليه حبه، وسيكون النصر لنا..

وانفردت يوما بالوزير ناخت فى مجلس صفو وشراب، وكنت ومازلت مؤمنا بمقدرته السياسية، فسألته:

ـ أتؤمن حقًّا بالإله الواحد، إله الحب والسلام؟

فقال بهدوء:

ـ نعم، ولكنى لست مع مصادرة الآلهة الأخرى.

فقلت بارتياح:

ـ حل وسط، ألم تشر عليه به؟

ـ بلى، ولكنه يعتبره كفرا.

ـ ونفرتيتى؟

فقال بأسف:

ـ إنها تتكلم بلغته!

* * *

ومضى يحكى لى فى إسهاب كيف انقلبت الأمور فى الداخل والخارج دون إضافة جديدة لما قاله الكاهن الأكبر لآمون أو الحكيم آى.

* * *

ثم قال:

ـ وعند ذلك نصحته قائلا: «علينا أن نغير من سياستنا»، ولكنه كان يتصدى لأى خطوة توحى بالتراجع، وينتشى بالحماس، فقال لى:

ـ يجب المضى فى المعركة الإلهية حتى نهايتها. ولن يكون لها إلا نهاية واحدة هى النصر!

وربّت منكبى بعطف، ثم واصل:

ـ لا تشارك التعساء إصرارهم على حب التعاسة!

ولما ازدادت الحال سوءا تمنيت مرة أخرى أن أقتله بسيفى وأنقذ البلاد من جنونه. تمنيت أن أقتله باسم الحب والولاء. وتبين لى أن ما حسبته قوة جبارة تنطلق من أعماق هيكله الضعيف ما هى إلا جنون أهوج

يجب حصره وشكمه. وعند ذروة الأزمة زارتنا الملكة الوالدة تيى ، واستدعتنى إلى لقاء بقصرها جنوب أخت آتون. وقالت لى :

ـ سيكون لى حديث طويل مع الملك.

فقلت لها بكل إخلاص :

ـ لعلك توفقين فيما فشلنا فيه.

فرمقتنى بنظرة كنت خبيرا بعمقها ، وسألتنى :

ـ هل دفعتك الأحداث إلى مصارحته برأى جديد فى الموقف؟

فأجبتها من فورى لسابق علمى بتأويلاتها للتردد الذى قد يسبق الإجابة :

ـ اقترحت يا مولاتى تغيير السياسة فى الداخل والخارج.

فقال بارتياح :

ـ هذا ما ينتظر من المخلصين أمثالك.

ـ إنه مليكى وصديقى كما تعلمين يا مولاتى. .

فواجهتنى بنظرة صريحة وسألتنى :

ـ هل تعدنى يا حور محب بالمحافظة على الولاء له فى جميع الظروف والأحوال؟

فقلت وعقلى يعمل بسرعة فائقة :

ـ أعدك بالولاء له مهما تكن الظروف والأحوال.

فقالت بارتياح غير خاف :

ـ إنهم يطالبون برأسه ، وإنك رجل القوة التى تحافظ عليه ، وربما سعوا إلى استقطابك عاجلا أو آجلا.

فكررت وعدى بالصدق والإخلاص. وقد حافظت على عهدى عندما اقتنعت بأن خير وسيلة للدفاع عنه هى التخلى عنه. وفشلت تيى

فى مسعاها رغم ما عرف عنها من سيطرة كاملة عليه. وغادرت أخت آتون لتموت فى حسرة أبدية. وضُيّق الخناق علينا فى مدينة الإله الجديد، وتوكد لدى أن الإله الجديد عاجز عن الدفاع عن نفسه فضلا عن محبوبه المختار. وذقنا الحرمان وتهددنا الموت من الشمال والجنوب. ولم يضعف ذلك من مقاومته بل لعله زاده إصرارا وعنادا، ولم تنطفئ نشوته الدينية فكان يقول لمحدثه:

- لن يخذلنى إلهى يا ضعيف الإيمان.

وكلما رأيت وجهه المتألق بالنشوة والثقة أيقنت أكثر وأكثر من جنونه. لم تكن معركة دينية كما تجرى فى الظاهر، ولكنها كانت فوضى جنونية تحتدم فى رأس رجل ولد فى هالة من الشذوذ. ثم كانت زيارة كاهن آمون لنا وتوجيه إنذاره الأخير إلينا، وقد قبض على يدى بقوة وقال لى:

- إنك رجل الواجب والقوة يا حور محب فأنقذ ضميرك بفعل ما يرجى منك.

والحق أنى أكبرت فى الرجل ارتفاعه عن التشفى والانتقام وسعيه إلى تجنيب البلاد ويلات المزيد من الخراب. وطلبنا المقابلة. كانت عسيرة وأليمة وحزينة. كنا ننفض عنا الولاء نحو الرجل الذى لم يكن لشىء سوى الحب. الذى صور له جنونه حلما عجيبا أراد لنا أن نشاركه فى سعادته الوهمية. واقترحت عليه إعلان حرية الأديان والدفاع الفورى عن الإمبراطورية. ولما رفض اقترحت عليه أن يتخلى عن العرش ويتفرغ لنشر دينه. وغادرناه ليعيد النظر فى الموقف كله. وقد أشرك سمنخ رع فى عرشه على حين هجرته نفرتيتى، ولكنه لم يتراجع خطوة عن إصراره. وقررنا التخلى عنه والانضمام إلى الجانب الآخر لتعود الوحدة للوطن، بعد الاتفاق على ألا يتعرض له أحد - ولا لزوجه - بأذى. وأقسمت يمين الولاء للملك الجديد توت عنخ آمون

فأسدل الظلام على أكبر مأساة تقطع لها قلب مصر، فانظر إلى ما صنع الجنون بمجد أرض مجيدة عريقة!

وشملنا صمت الختام فأخذت أنسق أوراقى تأهبا للذهاب. غير أننى سألته:

ـ وكيف تفسر هجر نفرتيتى له؟

فأجاب دون تردد:

ـ لقد أدركت ولا شك أن جنونه جاوز خط الأمان فهجرت قصره محافظة على حياتها!

ـ ولم لَمْ تهجر المدينة معكم؟

فقال بازدراء:

ـ كانت على يقين من أن الكهنة يعتبرونها الفاعل الأصلى فى الجريمة الكبرى!

فسألته وأنا أحييه مودعا:

ـ وكيف مات؟

ـ عجز ضعفه عن احتمال الهزيمة، واهتز إيمانه ولا شك بتخلى إلهه عنه، فمرض أياما قليلة ثم مات.

فسألته بعد شىء من التردد:

ـ كيف تلقيت خبر موته يا سيدى القائد؟

فأجابنى متجهما:

ـ لقد قلت كل شىء!

بـــك

يعيش المثال بك فى جزيرة نيلية على مبعدة ميلين جنوبى طيبة. فى بيت أنيق صغير يقع فى وسط مزرعته الصغيرة، وفى شبه عزلة. ورغم ما يشهد له به من تفوق فى فنه إلا أنه لم يدع للمشاركة فى بناء الدولة الجديدة لما عُرف عنه من ولاء لسيده السابق، بل ولما يتهم به أحيانا من الكفر بالآلهة القديمة. وهو اليوم يشارف الأربعين من عمره، طويل القامة نحيلها مع قوة ونشاط، ذو سمرة داكنة ونظرة ساخنة تغشاها كآبة. تبسم وهو يقرأ رسالة أبى، ثم نظر إلىّ قائلا:

ـ انطفأت روح الجمال بذهابه وغاض السرور من الألوان والنغم!

وقد عرفته وأنا صبى أتلقى أصول الصنعة فى مدرسة أبى «من» المثال الأكبر للملك أمنحتب الثالث. فذات يوم زارنا صبى محمولا على محفة، فهمس أبى فى أذنى:

ـ ولى العهد!

رأيت صبيا يماثلنى فى العمر، نحيلا ضعيفا، ذا نظرة شديدة التأثير، بسيطا بشوشا، مغرما بلغة الأحجار المعجزة. جاء ليشاهد ويتعلم، ويحاور فى ألفة محببة سرعان ما تنسيك أنك تحادث ابنا من سلالة الآلهة. واظب على زيارتنا فى أيام معينة فنشأت بينه وبينى صداقة، باركها أبى فخورا وسعدت بها أنا غاية السعادة. وجعل أبى يقول لى عنه:

ـ إنه رجل ناضج ذو سن صغيرة يا بك!

أجل كان كذلك. حتى كاهن آمون الأكبر اعترف له بنضجه المبكر وإن فسره على هواه بأنه قوة شريرة حلت فيه. كلا يا سيدى. القوة الشريرة معششة فى قلوب الكهنة. أما سيدى ومولاى فلم يعرف الشرقلبه وربما كان ذلك سر مأساته. ولما تقدم به العمر سنوات أخذ يناقش أبى وهو مكب على صنع تمثال لأمنحتب الثالث. قال له وهو يتابع العمل بين أبى ومعاونيه:

ـ لكم تقاليد يا معلم تخنق الأنفاس. .

فقال أبى بفخار:

ـ بالتقاليد نقهر الزمن أيها الأمير.

فهتف مولاى بنشوة:

ـ مع مولد كل شمس يولد جمال جديد. .

واقترب منى وهمس:

ـ يا بك، لن يكون هذا تمثالا أمينا لأبى، أين الحقيقة؟!

الحقيقة التى عاش من أجلها ومات فى سبيلها. منذ وقت مبكر انثالت على روحه إلهامات الغيب، كأنما خرجت معه إلى الوجود ساعة وجد دفقة من أنوارها.

ويوما ما قال لى:

ـ إنى أحبك يا بك، أتقن درسك لتكون رجلى فى حقل الإبداع.

الحق يا سيدى أننى مدين لمولاى وسيدى بكل شىء، بالدين والفن معا. إنه الذى وجه مداركى لدين آتون، وفتح قلبى بعد ذلك للإله الخالق الواحد الذى تجلى له صوته بالإيمان والحب:

تـــضــــــىء الأرض بـــــنــــورك
فـــتنجلى عنهـــا الـظلـمـــات
يـا خـــالـق الأرض والســـمـــاء
والإنـســـــــان والأنـعــــــــام

وغمرنى السلام فقلت له ونحن وحيدان بين المحجر والمدرسة :

ـ أشهد يا أميرى ، أننى مؤمن بإلهك . .

فقال بحبور :

ـ إنك ثانى المؤمنين بعد مرى رع ، ولكن ما أكثر الأعداء يا بك !

وعلمت فيما بعد أن نفرتيتى آمنت معنا فى وقت واحد وهى فى قصر أبيها آى . وكان يحدثنى فى أوقات متباعدة عما يلقى من عناء بسبب رسالته فكنت ألم بشذرات من الأحداث رغم عزلتى فى المحجر خارج طيبة . وهدانى إلى الفن الحَقيقى أيضا . فإن كان أبى هو الذى علمنى الأصول فمولاى هو الذى وهبنى الروح . لقد وهب ذاته للحقيقة فى الوجود والفن . من أجل ذلك أنكره الرجال الذين يعيشون للدنيا ولا يحسنون إلا لغتها المتبذلة ، ويقبلون معها ويدبرون معها ، ويهرعون إلى أى مائدة مثل الصقور والغربان . مولاى نوع آخر ، اسمع إليه وهو يناجى إلهه قائلا :

ـ يا خالق الحى والجماد ، خص بصرى بنورك ، وصدرى بسرورك ، وقلبى بنبضك الكونى العذب .

وأصغ إليه وهو يقول لى :

ـ احذر تعاليم الفن التى يريد أن يكبلنا بها الأموات ، اجعل حجرك مثوى للحقيقة !

ويقول لى أيضا :

ـ لقد خلق الإله الأشياء فلا تعبث بها ، انقلها بأمانة ، أبرزها بتقوى ،

لا تسلط عليها الخوف أو الشهوة أو الأمانى الكاذبة، اعكس كل ما بى من نقص فى الوجه والجسد ليتجلى جمالك فى الحقيقة!

ذلك هو مولاى وأستاذى الذى لا يعيد نغمة قديمة، الذى يبهر بالجديد الحى، محطم الأوثان، مقتلع التقاليد البالية من جذورها، السابح فى بحر المجهول، المنغمس فى نشوة الحقيقة. ويوم اعتلى العرش أعلنت إيمانى مرة أخرى بين يديه وتقلدت وظيفة «المثال الأكبر للملك». ويوم أمره الإله بالهجرة إلى المدينة الجديدة، ذهبت على رأس ثمانين ألفا من العمال وأهل الصنعة لنشيد أجمل مدينة عرفتها الأرض، مدينة النور والإيمان، أخت آتون. ذات الشوارع العريضة والقصور السامقة والحدائق الغناء والبحيرات المترعة، آية آيات الفن والجمال التى انقض الحقد عليها فوقعت فريسة الكهنة والزمن.

وسكت مرغما ليجتر حزنه المقيم على رائعة حياته التى تتهاوى ساعة بعد أخرى، وتتفتت لتضيع فى زحمة تراب الأرض. واحترمت سكوته حتى خرج منه قائلا:

- وكان لمولاى إنجازه فى الفن أيضا فأبدع شعرا ورسما، وجرب أصابعه الطويلة الرشيقة فى مناجاة الحجر، وإليك سرا لا يعرفه إلا الأقلون، فقد نحت لنفرتيتى تمثالا نصفيا آية فى الحقيقة والجمال، لعله يوجد الآن فى القصر المهجور أو فى قصر نفرتيتى، إن لم تكن انتقمت منه يد التخريب، وعندما هجرته الملكة بغتة مخلفة فى قلبه طعنة لا تندمل طمس عين التمثال اليسرى، معربا بذلك عن خيبة أمله مع الإبقاء على بقية التمثال رمزا لحب خالد، وإيمان راسخ لم يتزعزع إلا فى لحظة يأس أخيرة.. لقد كانا معا الرمز الحى للإله الذى هو أب وأم معا، وكان اتحادهما عن حب جليل ثبت أمام عواصف الزمن والأحداث، فكيف دهمتنا بهجر الرجل فى اللحظة الأخيرة؟! لم لَمْ تبق إلى جانبه حتى النهاية؟ لقد

اتهمها أعداؤها بأنها هربت من السفينة الغارقة لتجد مكانا مناسبا فى الدولة الجديدة، ولكنها لم تخطب مودة أحد، ولزمت قصرها بمحض مشيئتها قبل أن يتحول إلى سجن. كلا، لا تنتمى مولاتى إلى الانتهازيين، ولكنى أعتقد أن إيمانها اهتز لموقف الإله اللا مبالى من الأحداث، فهجرت العرش والعقيدة فى ساعة يأس سوداء. أما مولاى فلم يتزحزح عن إصراره قيد حبة رمل. كيف لا وهو الذى تجلى الإله لروحه وأسمعه صوته ودعاه بابنه الحبيب؟! لم يعد وجدانه يتسع لسماع صوت آخر، ولم يعد يكترث لرأى أو نصيحة كما ينبغى لمنغمس فى الحقيقة. وهو لم ينهزم، ولكننا نحن الذين انهزمنا، فحتى أنا خامرتنى شكوك، خاصة بعد مطالبته بالتنازل عن العرش، وأكثر عندما قرر الجميع التخلى عنه. وجدته واقفا فى خلوته يرقب ما يحدث بعينين طافحتين بالهدوء والصمت. ولما رآنى قال:

- سوف تذهب معهم يا بك.

فقلت بغضب:

- لم يجرؤ أحد على مخاطبتى فى ذلك يا مولاى.

فقال باسما:

- ولكنك ستذهب يا بك.

فقلت بحماس:

- سأبقى إلى جانب مولاى إلى الأبد.

فقال برقة:

- ستذهب مختارا أو مكرها..

ولذت بالصمت فخامرنى الشك من جديد، فسألته:

- مولاى، أيمكن أن ينتصر الشر؟

فرأيته يغيب ثم يرجع ليقول لى :

ـ الخير لا ينهزم، والشر لا ينتصر، ولكننا لا نشهد من الزمان إلا اللحظة العابرة، والعجز والموت يحولان بيننا وبين رؤية الحقيقة.

وراح يترنم بصوت عذب :

إنـــك فـــى قـــلـــبـــى
وليس هناك من يعـرفك غـيـر ابنك
فـــأنت الـذى عـلـمـتـــه
والأرض فـى قـــبـــضـــة يـدك

وكما أنه لم يتخل عن إيمانه لحظة فلم يفرط قط فى ناموسه الأسمى وهو الحب. فحتى فى تلك الساعة التى رأى فيها الهرم الذى شيده يتهاوى حجرا فى إثر حجر، ورجاله ينضمون إلى أعدائه، وزوجته المحبوبة تهجره دون كلمة وداع، حتى فى تلك الساعة المنحوسة لم يعرف قلبه الكراهية أو الحقد، ذلك الرجل الذى ترفع حتى عن العقاب المشروع، الذى هام بالإنسان والحيوان والجماد. انظر يا سيدى، لقد تولى الملك فى عصر الرخاء، دانت له إمبراطورية مترامية وشعب محب مطيع، ولو شاء أن ينعم بالسعادة والجلال والنساء والراحة لما عزت عليه، ولكنه أعرض عن ذلك كله، واهبا ذاته للحقيقة، متحديا قوى الشر والأنانية والطمع، فضحى بكل شىء وهو يبتسم. وقد سألته يوما بعد أن ذرّت قرون الشر والهمجية :

ـ مولاى، لِمَ لا تلجأ إلى القوة دفاعا عن الحب والسلام؟

فقال لى باسما :

لا يتردد المجرمون عن انتحال الأعذار لإشباع الرغبة الآثمة فى البطش وسفك الدماء، ولست منهم يا بك.

ولن أنسى عطفه على شخصى حينما آنس منى ميلا إلى «موت

نجمت» أخت زوجته فسعى إلى تزويجى منها، وكيف واسانى عندما أبت الزواج منى قائلا:

- إنها مثل الحدأة تنتظر فرصتها!

واستفسرت عما يعنيه قوله ولكنه لم يزد. وقد صممت على البقاء بجانبه رغم فزع المدينة كلها للهجرة، ووجدت رفيقا مصمما فى كاهن الإله الواحد مرى رع، ولكن الحكيم آى قابلنى وقال لى:

- إننا نهاجر لصد هجوم لا قبل لنا به دفاعا عن حياته، ولو جاز لإنسان أن يبقى إلى جانبه لكنت ذلك الإنسان، فإنى حموه ومعلمه!

فقلت:

- أيها الحكيم، إن بقائى لن يغير مِن الأمر شيئا.

فقال:

- ينص الاتفاق بيننا وبين الكهنة على ألا يمس الملك بأذى تحت شرط ألا يبقى أحد من أتباعه فى المدينة سوى نفر من الخدم.

هكذا اضطررت إلى الانضمام إلى القافلة وقلبى يتمزق، وما زال يتمزق حتى الساعة. وما زال الشك ينخر فى إيمانى رغم قول مولاى الحكيم، فأحيانا أصلى للإله وأحيانا أضرب عن الصلاة. ولما بلغنى نبأ وفاته تجددت أحزانى وبكيت حتى صفيت ماء عينى. وقد حدثنى قلبى بأنه لم يمت، ولكنهم قتلوه بالسحر أو بوسيلة غادرة. وهأنذا أعيش بلا هدف أو سرور فى انتظار الموت مثل مدينتى الرائعة الواقعة تحت رحمة الكهنة والزمن.

تادوخيبا

هى فى الأصل ابنة توشراتا ملك ميتانى أصدق صديق للعرش المصرى. تزوج منها أمنحتب الثالث فى أيامه الأخيرة، وهو فى الستين وهى فى الخامسة عشرة، ثم ورثها إخناتون ضمن حريم أبيه عند اعتلائه العرش. وهى تعيش اليوم فى قصر بشمال طيبة مع ثلاثمائة من العبيد. وقد استقبلتنى بناء على توصية من حور محب. فى الحلقة الرابعة ذات جمال مثير وكبرياء وعظمة. ولقيتها فى حجرة فاخرة وهى تجلس على كرسى من الأبنوس المطعم بالذهب. شجعتنى بابتسامة وراحت تروى قصتها قائلة:

- عاشرت الملك أمنحتب الثالث فترة قصيرة، فى جو مشحون بالغيرة والحقد. وعجبت للملكة العظمى تيى، كيف تبوأت مركزها الرفيع، على حين يوجد عشرات مثلها ممن يقمن بالخدمة فى حريم أبى الملك العظيم توشراتا. وعجبت أكثر لمنظر ولى العهد الذى كنت أراه فى الحديقة، أى مخلوق هزيل قبيح يثير الاحتقار أكثر مما يثير العطف. وساءت صحة الملك الأب فاتهمنى الحاقدون بأننى المسئولة عن ذلك، والحق أنى قرأت النهاية القريبة فى صفحة وجهه المتغضن منذ الليلة الأولى. ورحت أفكر هل يرثنى قريبا ذاك الصبى الحقير؟! وقلت لنفسى: إن الحياة مع أبيه العجوز أفضل، فهو عظيم ومرح وذوحيوية تناقض سنه وصحته. وكثيرا ما كان

الحديث يدور حول ولى العهد فى الحريم، فتتندر بولعه بالفنون النسائية كالرسم والغناء وعدم لياقته الواضحة للعرش، وزهده المريب فى النساء. ووافتنا أخباره عن هوسه الدينى وما يحدثه ذلك من متاعب لوالديه وما أثاره بين الكهنة من قلق ومخاوف. وكانت الأخبار تطوف بنا دون أن تنغرز فى وجداننا، فهموم النساء اليومية تغطى على شئون الدولة، إلا موت الملك الذى هز الأعماق وفرض علينا طقوسا لا طاقة لنا بها. واعتلى المخلوق الحقير العرش هو ونفرتيتى التى تزوجها فى حياة أبيه، وآل إليه حريم أبيه. وأسبغ علينا رعايته كأننا حيوانات مستأنسة، ولكنه لم يقترب منا حتى شاع بين النساء الآتيات من شتى الأمم الانحلال والشذوذ. وتساءلت امرأة:

ـ لماذا لا يهتم بنا ويكف عن معارِكه الدينية الوبيلة؟

فأجابتها أخرى:

ـ لو كان يستطيع ما شغل نفسه بذاك الهراء..

ومع ذلك فقد دبت الغيرة فى قلب نفرتيتى، فقررت أن تزور الحريم للتحية والتعارف. وخمنت كل امرأة الباعث الحقيقى وراء الزيارة وهو أن ترانى أنا عن قرب، وذلك لما ذاع فى القصر عن جمالى وشبابى. كنت الوحيدة التى تماثلها فى العمر، وتنافسها فى الجمال، وتتفوق عليها فى الأصل إذ إننى كريمة ملك على حين أنها ابنة رجل من الشعب يدعى آى، كان أول من أعلن إيمانه بالدين الجديد أمام الملك، وأول من بادر إلى الانضمام إلى أعدائه عندما آذنت شمسه بالغروب. جاءتنا الملكة الجديدة بين صفين من الجوارى، وحيتنا امرأة امرأة تبعا لأقدميتنا فى الحريم، وعندما جاء دورى ـ وكان الأخير ـ ثقبتنى بنظرة مستطلعة فمثلت أمامها فى أدب وتحد معا، حتى يتجلى الركود فى ماء وجهها. من أجل ذلك حنقت على الملكة الوالدة تيى عندما نبهت ابنها الملك

الهزيل إلى«واجبه» نحو حريمه، وخاصة تادوخيبا ابنة الملك الصديق توشراتا.

لم تغفر لها تدخلها، واشتعلت غضبا حينما أذعن الملك لإرادة أمه المحبوبة فقرر زيارتى. وكما تقضى التقاليد انتظرته فى حجرتى فوق سريرى المطعم بالذهب، عارية تماما، غير مخفية حسنا من محاسنى. وأقبل شبه عار إلا من وزرة قصيرة تطوق وسطه، فجلس على طرف السرير باسما فى رقة مجللا بهدوء غير طبيعى. وهمس متسائلا:

ـ أيسعدك أن تنجبى لى وليدا؟

فقلت وأنا أغالب تقززى:

ـ إنه الواجب يا مولاى!

فحارت فى عينيه نظرة بائسة وهمس:

ـ إنى أبحث عن الحب فهو واجبى الأول والأخير.

فسألته بجرأة:

ـ وهل ترغب فىّ عن حب يا مولاى؟

فربّت ظهر يدى بعطف وقال:

ـ لا عليك!

ولثم جبينى ثم غادر الغرفة كما جاء. ولم أبح بسر الليلة لأحد فظن النساء أن نفرتيتى قد خسرت نصف قلب الملك على الأقل. وكرت الأيام فلفحتنا نيران الأفئدة المضطرمة فى الخارج حتى صدر القرار ببناء مدينة جديدة. وبعد سنوات انتقلنا إلى أخت آتون، وسعد جميع من حولنا، ونبذنا فى جناح لممارسة حياة غير محتملة مهينة، دافعة للشذوذ، ولما عُرف أن الملك الأبله يعالج الخطايا بالحب لا العقاب، انتشر الفسق بين الجنود والنساء، وأهدرت جميع القيم. وراح الملك ينشر دينه الجديد فى الأقاليم، واستبقت النساء إلى الصلاة للإله الواحد

بغير إيمان حقيقى، حتى خُيِّل إلىّ أنه دين بلا مؤمنين، وأنه كوَّن أمة من المنافقين والطموحين إلى المناصب والجاه والمال. ولم أتصور أن يكون لهذا الكون الكبير إله واحد! إن كل مدينة فى حاجة إلى إله يعنى بشئونها، وكل نشاط إنسانى فى حاجة إلى إله متمرس فيه. وكيف تقوم المعاملة بين الناس على الحب؟ إنه هذيان طفل لم تحسن تربيته وأفسده ولع أمه به. وكان يلقى على الجموع شعره ثم تترنم زوجته بإنشادها، فحل محل العرش المعبود فرقة جوالة من الشعراء والمطربين، وتلاشت هيبة الفراعنة. وكان لا بد أن يقع ما وقع، فجاءت الأحزان مثل ليل طويل لا يؤذن بفجر، وتتابعت المصائب فى داخل البلاد كما فى الإمبراطورية، وصمد أبى الشجاع المخلص وحده وهو يبعث الرسل فى طلب النجدة حتى سقط مدرجا بدمه فى الميدان دفاعا عن ملك أبله.
وأحسن أناس الظن به فحسبوه شاعرا نبيلا أخطأ القدر بإجلاسه فوق العرش. أما الحقيقة فهى أنه كان مخلوقا غريبا، لا هو ذكر ولا هو أنثى، يؤرقه الشعور بالنقص والهوان، فجر الناس إلى الهوان، وأعلن شعار الحب، ولكنه أشعل فى القلوب البغضاء والحقد والفساد، فمزق وطنه وضيع إمبراطوريته. وجارته فى جنونه المرأة الداهية نفرتيتى لتستأثر بالسلطة، ولتشبع غريزتها الفاجرة بين أحضان الرجال. وقد أقنعت الجميع بأنها وزوجها يشكلان أجمل صورة للحب والوفاء، كانا يتبادلان القبل أمام الجموع فى شوارع أخت آتون وفى لقاءات الأقاليم.
والحق الذى يؤمن به نساء القصر كافة أنه لم تقم بينهما علاقة زوجية على الإطلاق، وما كان بوسعه أن يقيمها، ومارست حبها متعدد النزوات مع المثال بك والقائد حور محب والقائد ماى وغيرهم، ومنهم أنجبت بناتها الست. بل قد تهامس بعض الجوارى بأنه لم يمارس علاقة جنسية إلا مع أمه الملكة تيى!

ولاذت بالصمت وهى تلاحظ ما ارتسم فى وجهى من آى الذهول، ثم واصلت :

ـ وعرف بيننا ذلك كحقيقة لا شك فيها، وعرف أيضا أنه أنجب منها بنتا، إنه لم يستطع الجنس مع غيرها، وشهدت أكثر من جارية بأنها رأت الفعل رؤية العين، ولم يغب ذلك عن نفرتيتى، وبسببه تبادلت المرأتان كراهية مريرة على مدى العمر. المشكلة أن كثيرين لا يتصورون أن الرجل الذى زلزل الدنيا يمكن أن يتمخض عن كائن هزيل تافه لا وزن له. لكنها الحقيقة التى يجب أن تعرف وأن تسجل. ولولا أنه كان الوريث لأعظم أسرة فى التاريخ لمضى فردا حقيرا فى أزقة طيبة يتدفق ريق العته من فيه وتعبث به الصبيان، ولا غرابة أن يستطيع معتوه ـ إذا جلس على العرش ـ أن يخرب إمبراطورية! ولولا أن نفرتيتى راقت فى عينيه لما كانت إلا عاهرة من عاهرات طيبة المحترفات.

وقبيل النهاية بقليل زارت الملكة الأم أخت آتون لإنقاذ السفينة الموشكة على الغرق، ولكن النقاش احتد بينها وبين نفرتيتى، ولم تتورع الملكة الشابة عن اتهام العجوز بأنها متواطئة مع أعداء العرش، ولكن إخناتون حزن لذلك الاتهام ودافع عن أمه وعشيقته دفاعا حارا، فغضبت نفرتيتى وأصرتها له فى أعماقها، وانتقمت فى اللحظة الحرجة فهجرته فجأة قبل أن يقرر رجاله التخلى عنه، وحاولت استرضاء الكهنة لتجد لها موضعا فى الدولة الجديدة، وربما طمحت أن تكون زوجة لتوت عنخ آمون، ولكنهم وطئوا مسعاها بالنعال، ولولا نفوذ عشيقها القديم حور محب لمزقوها إربا.

صمتت تادوخيبا وهى تبتسم بازدراء، ثم ختمت حديثها قائلة :

ـ هذه هى قصة المعتوه وديانته الخرقاء!

توتو

ـ لم أكفر بإلهى آمون قط، ولم أنضم إلى قافلة المنافقين والانتهازيين، ولكننى خدمت المارق بالاتفاق مع كاهن آمون الأكبر لأكون عينه اليقظة فى القصر، ويده الضاربة عند الضرورة.

هكذا بادرنى توتو وزير الرسائل فى عهد إخناتون دافعا عن نفسه تهمة النفاق التى تحلّق فوق رجال إخناتون. وقد قابلته فى مقصورته بالمعبد حيث يشغل وظيفة الكاهن المرتل فى عهد توت عنخ آمون كما شغلها فى عهد أمنحتب الثالث. وهو رجل دين ريان الوجه، جاحظ العينين، عنيف الأعصاب. ودون تردد راح يعطينى تصوره عن المأساة. قال:

ـ امتازت هذه الأسرة العريقة بملوكها العظام، فلم يتسلل إليها الخور إلا حين اختار أمنحتب الثالث شريكته فى العرش من أسرة شعبية فاستعارت له ذلك الوريث الأرعن المخبول. وقد اتبع الملوك العظام معنا ـ نحن كهنة آمون ـ سياسة جديدة. عرفوا لآمون قدره وفضله وآمنوا به كبيرا لجميع الآلهة، وفى الوقت نفسه أولوا كهنة الآلهة الأخرى رعاياتهم؛ ليضمنوا إخلاص الجميع، وليقيموا بيننا وبين بقية الكهنة توازنا يضاعف من قوة العرش واستقلاله. ولم تصادف تلك السياسة هوى فى نفوسنا، ولكنها لم تبلغ بنا حد الاستياء أو الاعتراض ولم تنل من سمو مركزنا. ولما ولى العرش

المارق وجد الطريق أمامه واضحا، وكان من الممكن أن يسير فيه بسلام ملتزما بمنهج آبائه وأجداده، ولكن الخنفساء توهمت أنها أسد فكانت الكارثة. لم يكن كأحد من سابقيه فى القوة أو الحكمة. وكان واعيا بضعفه وقبحه وأنوثته، ولكنه أوتى من المكر والخبث ما لا يتاح إلا لمن أذله الضعف وأحرقه الحقد، فقرر أن يتخلص من جميع الكهنة ليخلو له وجه الملك وحده ثم ينصب نفسه إلها يستأثر بالعبادة دون شريك إلا إلها وهميا يتخذه قناعا لطموحه. ومضت تبلغنا أنباء معجزات الصبى الذى تفوق قواه سنه الصغيرة، حتى عرفنا حكاية الإله الجديد الذى تجلى له ودعاه إلى الكفر بجميع الآلهة. وقلت يومها للكاهن الأكبر:

ـ إنها مؤامرة ويجب أن تقتل فى مهدها.

وبدا أنه لا يسلم بأنها مؤامرة، فقلت:

ـ إنى أتهم الملكة تيى والحكيم آى، أما الغلام فلا مسئولية عليه.

فقال الكاهن الأكبر:

ـ لا أعفى الملكة من جانب من المسئولية، ولكنها مسئولية الخطأ فى التقدير، أما آى فقد توكد لى أنه لا يقل عنا انزعاجا..

ولم يسعنى إلا تصديقه فهو معصوم من الخطأ، فقلت:

ـ إذن فنحن حيال كائن قد حلت فيه روح ست إله الشر فيجب اغتياله فورا.

فقال الكاهن:

ـ الأمر لم يفلت بعد من يدى الملك والملكة..

وآمنت بأننا سندفع ثمن ترددنا غاليا. وجعلت أدعو إلهى مرددا:

يا آمــون أنـت سـيــد الصـــامـــتين

الذى يـأتى علـى صـــوت الفـــقـــيـــر

عـندمـــــا نـاديتك فى مــــــحـنتى

جئـــت لتخلصنى

يا آمـــون يا ســيـــد طيـــبـــة إنـك أنت

الذى تخـلص من فى الـعــالم الـســفـلى

إذا ناداك إنسان

فــإنك أنـت الذى تحـضـــر من بـعـــيــد

* * *

ومضى يسرد لى الحوادث التاريخية كما سمعتها من قبل، رحلة الأمير فى الإمبراطورية، عودته، اعتلاؤه العرش.

* * *

وهنا قال معلقا:

- أعلن الرجال إيمانهم بدينه بين يديه ليتبوءوا مراكزهم فى الدولة الجديدة. لقد سقط الجميع بلا كرامة، فأتاحوا للمكر الخبيث أن ينفث سمه ويهلك الأرض، ولا عذر لهم عن خيانتهم، فهم مسئولون جميعا عما حل بنا من خراب. قلت للكاهن الأكبر:

- لا جريمة بلا عقاب، يجب اجتياح أخت آتون وقتل المارق والمارقة وآى وحور محب وناخت وبك..

فقال:

- الوطن لا يحتمل مزيدا من الخراب.

فقلت بإصرار:

ـ لا بد من دم لنحظى برضا آمون .

فقال :

ـ إنى أدرى بما يرضى إلهى .

فصمت وباطنى يغلى بالحنق ، فإنى أومن بأن الجريمة التى تفلت من العقاب تكرس الإثم بين الناس وتزعزع الثقة فى العدالة الإلهية وتمهد لارتكاب المزيد من الجرائم . وشد ما يسوءنى أن أرى أحدهم وهو ينعم بعزلة آمنة أو يعمل بين الشرفاء كأنه أحدهم ، كيف نوفر الأمان لمن شارك فى إلحاق الخراب بنا؟ !

* * *

وواصل سرده للأحداث ، بناء أخت آتون ، الانتقال إلى المدينة الجديدة ، الانغماس فى نشر الدعوة .

* * *

قال :

ـ بت قريبا منه ، أعمل فى رحابه ، وأتلقى كالآخرين هذيانه ، فعرفته على حقيقته أكثر من ذى قبل . كان يمكن أن يكون شاعرا أو مطربا ، ولكنه جلس على عرش الفراعنة ، فكانت الكارثة . قرر منذ البدء أن يتجاوز ضعفه المهين بمكر ودهاء وأن يستأثر بالسيادة . أراد أن يقول لتحتمس الثالث : «رغم قوتك ومهارتك العسكرية فإننى الأقوى» . لم يكن ملهما كما اعتقد البعض ولا مجنونا كما ظن البعض الآخر ، ولكنه حظى بأكبر قدر من مكر الضعفاء الخبثاء فأجاد تمثيل دوره . تخيل أنه يستطيع أن يخلق الدنيا على هواه ، فعاش فى دنيا من خلقه وصنعه لا رابطة تربطها بالواقع ، دنيا خلق لها قوانينها وتقاليدها وأناسها ونصّب نفسه إلها عليها معتمدا على سحر العرش وسيطرته على النفوس . من أجل ذلك تلاشى سحره

لدى أول صدام حقيقى مع الواقع واجتاحه الفساد والتمرد والعدو وفر عنه الجبناء. وكثر الحديث عن ساعات وحيه وما تثمر من خوارق الأفعال والأقوال. وقد شهدت بعضها وأنا أعرض عليه الرسائل فى خلوته. كانت تتلبسه حال من الانفعال المفتعل. فيخرج من حافة الوعى غائصا فى المجهول، ويتبادل كلمات غامضة مع أطراف غير مرئية، ثم يعود رويدا إلى وعيه فيحدثنا عن إلهه الذى لن يخذله أبدا. وكنت أختلس نظرات من وجوه الدهاة من أمثال: آى وحور محب وناخت وأتساءل: هل حقّا يصدقون المهزلة؟ هل حقّا جاز عليهم خبثه الأنثوى؟! كلا، لقد تظاهروا بتصديقه لينال كل مأربه، وما كشفوا عن أنفسهم إلا حين تهددهم الموت من الشمال والجنوب.

* * *

وحدثنى عن انقلاب الأحداث، فساد الموظفين، عذاب الناس، تمرد الإمبراطورية، تحرش الحيثيين بالحدود، مصرع توشراتا.

* * *

قال:

- أغرقنى فيضان من الخوف على البلاد ففكرت جادا فى اغتياله لأنقذ الدنيا والدين من شره. وعثرت بلا كبير عناء على من تطوع لقتله فى خلوته قبل الشروق، ويسرت له مخبأ فى الحديقة، وكاد الرجل ينجح فى مهمته لولا أن أدركه فى اللحظة الأخيرة محو رئيس الشرطة فعاجله بضربة قاتلة واستحق بذلك لعنة الآلهة إلى الأبد. واستعنت كثيرا بالسحر، ولكنه لم يصب الهدف من سوء حظ البلاد، ولعل الخبيث كان يلجأ إلى السحر المضاد.

* * *

وروى ما تلا ذلك من انتشار التمرد فى الأقاليم، زيارة الملكة تيى لأخت آتون، اللقاء التاريخى بين كاهن آمون ورجال إخناتون.

* * *

قال:

ـ ولما يئس الخبيث الماكر من رجاله وعلم بتفكير الكهنة فى اختيار توت عنخ آمون للعرش أشرك سمنخ رع معه فى عرشه، ولكنى نجحت فى اغتيال الشاب بوسائلى الخاصة، وإذا بالبناء يتصدع باختفاء نفرتيتى نفسها فمات الشر، ولكن بعد أن نفث سمه فى جميع الأوصال. وقد كان من سوء حظنا جميعا أن ساقه قدره إلى اختيار نفرتيتى زوجة له. حقًّا إنها امرأة قوية الشخصية، راجحة العقل، فائقة الجمال، ولكنها مثله مريضة بالطموح، فآمنت فى الظاهر بدينه، وشاركته فى الواقع مكره وخبثه. وعلى اليقين لم تكن تحبه وما كان فى وسعها ذلك، ولكنها هامت بالقوة والسيادة المطلقة. ولعلها دليل آخر على الدور الخفى الذى قام به الداهية آى الذى كان يتلقى فى المناسبات هدايا الذهب تنثر عليه وعلى زوجته تى من الشرفة الملكية فيحملها العبيد فى القدور إلى قصره. ولكن كيف تعامت المرأة الذكية عن عواقب سياسة زوجها على البلاد والإمبراطورية؟ وهل آمنت حقًّا برسالة الحب والسلام؟! الحق أنى لا أتصور ذلك ولا أسيغه، ولكن لعلها غالت فى تقدير سحر العرش الفرعونى وتوهمت أنه السحر الذى يغنى عن العقاب والسيف وجيش الدفاع. ولعلها أدركت الخطأ فى وقت مبكر، ولكنها خافت أن تعلن وساوسها فتفقد ثقة زوجها فاستسلمت للمقادر. ولما تخلت الحاشية عن الملك تخلت عنه متعلقة بأمل أخير ألا يغدر بها عشاقها. وأعتقد أن حور محب حاول إقناع

الكاهن الأكبر بقبولها فى طيبة ، ولكنه رفض ذلك وأصر على الرفض. وقد مات المارق وما زالت هى تتنفس فى سجنها متجرعة الأحزان والحسرات.

لو أن الذى خلف أمنحتب الثالث على عرشه عدو من الحيثيين لما استطاع أن يفعل بنا أكثر مما فعل المارق اللعين . .

تـى

هى زوجة الحكيم آى، فى السبعين من عمرها، صغيرة الجسم، ممتازة فى صحتها بالقياس إلى عمرها، حلوة المحضر. وقد تزوج منها آى عقب موت زوجته الأولى أم نفرتيتى فتلقتها تى وهى بنت عام أو عامين، ثم أنجبت له موت نجمت. ولما رفع الحظ نفرتيتى إلى العرش اختارت تى ضمن حاشيتها ووهبتها لقب«مربية الملكة». ولولا أنها كانت تحبها ما فعلت ذلك، وهو ما يدل على أن تى أحاطت نفرتيتى برعايتها وحبها وأنها لم تكن«امرأة أب» بالمعنى المألوف.

وقد سردتُ لها المعلومات التى حصلتُها عن الأحداث التاريخية، ثم قلت:

ـ لا داعى للتكرار إن لم يكن لديك إضافة أو تعديل حفظا على وقتك وراحتك.

فقالت تى:

ـ لم أخالط الملك رغم قربى من زوجته، ولعله لم يخاطبنى إلا مرات معدودة، ولكن عذوبته لا تبرح القَلب أبدا. وقد عرفنا عنه الكثير من بعيد عن لسان زوجى آى الذى اختيرلتعليمه. وأذهلنا ما سمعنا عن موقفه من آمون وميله مع آتون، ثم أذهلنا أضعافا ما قيل عن اكتشافه للإله الجديد. الحق أنه أذهلنى أنا وابنتى موت نجمت، أما حبيبتى نفرتيتى فكان لها موقف آخر. ولكن علىّ قبل

ذلك أن أعرفك بها، إنها بنت ذكية، وذات روح متوثبة تعشق الجمال وتهيم بالأسرار الدينية، ونضجها يفوق سنها بكثير، حتى قلت يوما لزوجى آى:

ـ يُخيّل إلىّ أن ابنتك ستكون كاهنة!

وكان ينشب بينها وبين موت نجمت ما ينشب بين الأخوات الصغيرات من نزاع وخصومات عابرة، ولكن الحق كان دائما معها، ولا أذكر أنها تورطت فى خطإ مرة، وكانت تصالح أختها كما يصالح الكبير الصغير. وكانت تتفوق فى تعليمها لدرجة خشيت معها على ابنتى من ردة فعل يتعذر إصلاحها. وجعلت تتلقى كلمات ولى العهد بإعجاب فتميل معه إلى آتون، ثم تباغتنا بإعلان إيمانها بالإله الواحد. وقالت لها موت نجمت:

ـ إنه كافر.

فقالت بيقين:

ـ لقد سمع صوت الإله.

فصاحت بها:

ـ وأنت أيضا كافرة!

كانت ذات صوت عذب، وشد ما كان يسرنا أن نسمعها وهى تغنى:

ماذا عساى أقول لأمى؟

فكل يوم أرجع إليها بالطيور

أما اليوم فلم أنصب شباكى

لأن حبك قد ملكنى

وبعد إيمانها راحت تغنى للإله الجديد وحدها فى الحديقة ولا أحد منا يريد أن يطرب لها، ولكنى أذكر صوتها الذى اقتحم علىّ حجرتى ذات صباح وأنا أمشط شعرى:

يـا حـى
يا جـميل يا عظيم
بـك عـم الـفـرح
وأتـرع الـكـون بـالـنـور

هكذا كان قصرنا أول بيت يتردد فيه نشيد الإله الجديد. ودعينا لحضور الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على جلوس أمنحتب الثالث على العرش. وسمح لنا باصطحاب بنتينا لأول مرة لشهود احتفال بالقصر الفرعونى. وزينت البنتين لعلهما يروقان فى أعين صفوة الشباب، فارتدت كل منهما ثوبا طويلا فضفاضا، وطوقت منكبيها بمعطف مزركش قصير، منتعلة صندلا ذا سيور ذهبية. دخلنا قاعة لا تقل مساحتها عن مساحة قصرنا كله، مطوقة بالمشاعل ومقاعد المدعوين على حين تصدرها العرش بين جناحين من الأمراء والأميرات. وبين هذا وذاك ترامى فراغ للعازفين والراقصات العاريات، وتنقل العبيد بين المدعوين والمدعوات يحملون المباخر والأشربة والأطعمة الفاخرة. وقلبت عينى بين صفوة الشباب فتمنيت لابنتى حور محب الضابط الواعد وبك المثّال الموهوب. ورأيت الأعين تسترق النظرات إلى نفرتيتى آتية من نخبة الحاشية، حور محب وبك وناخت وماى، خاصة عندما أتيحت الفرصة لبنات الأشراف ليرقصن ويغنين فى رحاب الملكين. وقد رقصت حبيبتى برشاقة آسرة، وغنت بصوت عذب فاقت به المطربات المحترفات. لعلّى فى تلك الليلة شاركت ابنتى موت نجمت غيرتها الصامتة، غير أننى عزيت نفسى قائلة: «إذا تزوجت نفرتيتى خلا الجو لموت نجمت وتجلى نورها دون منافس». وبدافع من حب الاستطلاع اختلست نظرات من نفرتيتى لأكتشف أين تتجه نظراتها فأدهشنى أن أراها منجذبة من أعماقها إلى معلمها الروحى.. ولى العهد! ونظرت

نحوه فهالتنى غرابة صورته ورقته الأنثوية المثيرة للدهشة. ولما التقت عيناى بعينيها همست لى:

ـ حسبته عملاقا!

ولكن انبهارها غطى على دهشتها، ولم تكن تحلم بما يدخره لها القدر. ورجعنا إلى قصرنا، فقلت لزوجى آى:

ـ سيطرق بابنا الخطاب يا آى فدبر أمرك..

فقال بهدوئه المألوف:

ـ الآلهة ترسم لكل مصيره.

وبعد مرور يوم أو يومين فاجأنى آى بقوله:

ـ الملكة تيى ترغب فى مقابلة نفرتيتى..

فأذهلنا الخبر، وسألته:

ـ ماذا يعنى ذلك؟

فتفكر مليا، ثم قال:

ـ لعلها سترشحها لوظيفة فى القصر!

ـ ولكنك تعرف أشياء ولا شك!

فقال:

ـ كيف بمعرفة ما يدور فى رأس الملكة العظمى؟

وأخذ يلقنها أصول الآداب المتبعة فى لقاء الملوك، وقلت لها:

ـ فليباركك آمون برعايته..

فقالت بثبات:

ـ إنى أسأل الإله الواحد رعايته..

فهتف بها آى بحزم:

ـ حذار أن تتفوهى بحماقة فى حضرة الملكة.

وذهبت نفرتيتى. ورجعت شديدة الانفعال فطوقتنى بذراعها وأجهشت فى البكاء، أما آى فقال:

ـ اختارتها الملكة زوجة لولى العهد!

عصف الخبر بأفئدتنا عصفا. سمت به حبيبتى نفرتيتى فوق الغيرة والمنافسة. ها هى ذى تفتح لنا باب الحظ السعيد لننفذ منه إلى الأسرة المالكة. لقد أظلنا حظها بجناحيه العريضين وحلق بنا فوق الجميع. من أجل ذلك هنأتها من أعماق قلبى، وكذلك فعلت موت نجمت. وراحت تحدثنا عما دار بينها وبين الملكة العظمى، ومن شدة تأثرى لم أتابعها بالدقة المتوقعة، وليس فى ذاكرتى اليوم إثارة منه، وما أهمية الحديث إذا قيس بالنتيجة التى انتهى إليها؟ وتم الزواج فى حفل رائع أعاد إلى ذاكرة المخضرمين ذكرى زفاف الملك أمنحتب الثالث. وصرنا جميعا ضمن الأسرة المالكة، واختارتنى حبيبتى لوظيفة المربية الخاصة لها، وهو مركز فى القصر يلى مركز الأميرات مباشرة! وبالزواج صارت نفرتيتى والأمير وحدة لا تتجزأ، ولا يفرق بين نصفيها إلا الموت. وقد شاركته الأفراح والأحزان إلى ما قبل النهاية بساعات، ودبرت له شئون ملكه بمهارة امرأة خلقت للعرش، وشاركته حمل رسالته الدينية كأنها كاهنة مختارة حقّا بعناية الإله الواحد. صدقنى لقد كانت ملكة عظيمة بكل معنى الكلمة. لذلك صعقت عندما علمت بهجرها المفاجئ لزوجها فى ذروة محنته. ولعله أول قرار اتخذته دون علمى فهرعت إليها فى قصرها، وجلست عند قدميها مستسلمة لنوبة من البكاء. ولم يبد عليها أنها تأثرت لحالى، وقالت لى بهدوء:

ـ اذهبى بسلام..

فقلت برجاء:

ـ إنهم يذهبون وقاية للملك من أى شر.

فكررت ببرود:

ـ اذهبى بسلام.

فتساءلت فى حيرة:

ـ وأنت يامولاتى؟

فقالت ببساطة:

ـ لن أغادر هذا القصر.

فهممت بالكلام، ولكنها قاطعتنى بنبرة آمرة:

ـ اذهبى بسلام.

وغادرتها كأتعس امرأة على وجه الأرض. وفكرت طويلا فيما دفعها إلى الاختفاء، فلم أهتد إلا إلى فرض واحد، هو أنها كرهت أن تشهد هزيمة الملك وإلهه فلاذت بالهرب خلال لحظة يأس طارئة، على أن ترجع إليه بعد ذهاب الجميع. ولا أشك فى أنها سعت إلى ذلك، ولكنها منعت بالقوة. ولا تصدق أى تفسير آخر لهجرها القصر. سوف تسمع أقوالا متضاربة، وسيدلى كل رجل بما يؤكد أنه الحق، بينا ينطق عن هواه. لقد علمتنى حياتى بألا أثق بأحد ولا أصدق أحدا. وها هو ذا الزمن يمضى وأنا أتساءل دائما: أكان مولاى إخناتون يستحق تلك النهاية المحزنة؟ كان النبل والصدق والحب والرحمة فلم لَمْ يبادله الناس نبلا بنبل، وصدقا بصدق، وحبا بحب، ورحمة برحمة؟ لماذا انقضوا عليه كالوحوش يمزقونه، ويمزقون ملكه كأنه عدو أثيم؟! ولقد رأيته فى المنام منذ أعوام مطروحا على الأرض والدم ينزف من جرح غائر فى عنقه، فاستحوذ علىّ شعور قوى بأنهم قتلوه قتلا مدعين كذبا أنه مات ميتة طبيعية.

وسكتت وهى تنظر فيما أمامها بأسى، ثم تمتمت:

ـ لقد عاشرنا رجلا لا يتكرر.

مــوت نجمــت

فى بدء الحلقة الرابعة، جميلة رشيقة، يشع من عينيها العسليتين ذكاء، شعرت فى محضرها بوجود مسافة بينى وبينها لا يمكن أن تُعبر. وهى ابنة آى وتى وأخت نفرتيتى، وتقيم فى جناح خاص بها فى قصر آى. وثمة لغز رابض فى حياتها وهو أنها لم تتزوج رغم كثرة خطابها. وما كدت أجلس بين يديها وأبسط أوراقى حتى أنشأت تقول:

ـ قدر لنا أن نشارك فى مأساة إخناتون المارق فقد اختير أبى الحكيم آى معلما له، فحمل أبى إلينا أخباره وأفكاره، ومن أول الأمر أسأت به الظن، واتهمت عقله، ثم أثبتت الأيام صدق شعورى وتفكيرى. وكان لنفرتيتى موقف آخر دهشت له الأسرة، أما أنا فلم أدهش له. كانت تحب دائما أن تلفت الأنظار بتحديات مفتعلة، وتود أن تثير من حولها عواصف المناقشات. أجل، كانت ذكية، ولكنها لم تكن صادقة ولا مخلصة، هذا ما أغراها بعبادة آتون وتفضيله على آمون، وما دعاها أخيرا للكفر بجميع الآلهة والإيمان بإله لم نسمع عنه من قبل. وقد سمعتها مرة وهى تقول لأبى :

ـ أبلغ يا أبى ولى العهد أننى مؤمنة بإلهه.

فقال لها أبى متجهما :

ـ إنك حمقاء يا نفرتيتى ولا تقدرين العواقب!

وكنت بسبب تجديفها أخاف أن تحل اللعنة بنا جميعا . لقد بقى إيمانى بآلهتى حيا فى قلبى لا يتزعزع . أجل . أعلنت إيمانى بالإله الجديد لانتمائى للأسرة الملكية ، وبقصد أن أبذل ما أستطيعه فى موقعى الجديد دفاعا عن آلهتى المقدسة ، ولكن إيمانى بآلهتى لم يهن قط . وأتيح لى أن أرى المارق لأول مرة فى حفل العيد الثلاثينى للجلوس على العرش ، فعجبت للشبه الخارق بين أفكاره المنحرفة وبين صورته المتنافرة الجامعة بين الهزال والقبح . لذلك فلا تأخذ مأخذ الجد ما قد تسمع عن الحب النبيل الذى جمع بين قلبى المارق وملكته العظمى نفرتيتى ، فإنى أعرفها حق المعرفة ، وأعرف المثّال الذى حلمت به كفتى لأشواقها ، إنه لا يمت بصلة للفتى الهزيل القبيح العاجز الذى خلق نصف أنثى ونصف ذكر . وكانا يزعمان أنهما يعيشان فى الحقيقة ، أما هو فكان يعيش فى الجنون ، وأما هى فعاشت فى الكذب والخديعة ، ولم تحب سوى العرش والسلطان . وفى الحفل غلبتها طبيعتها الدفينة فأعلنت عن جمالها بلا حياء كأنها امرأة محترفة ، ورمت شباكها حول حور محب ، ولكنه لم يكن يكترث لذلك النوع من النساء المبتذلات . ولما دعينا نحن بنات الأشراف للرقص والغناء ، قمت أنا فرقصت فى احتشام ، واخترت أغنية موجهة لفرعون :

أنت تجىء كالشبع فينتهى الجوع

أنت تجىء كالثياب فينتهى العرى

أنت كالسماء الهادئة بعد عاصفة هوجاء

تعطى الدفء لمن أصابه البرد

أما نفرتيتى فقد أذهلت الجميع برقصتها الداعرة ، ولكنها سرقت استحسان الفاسقين وما أكثرهم ، ثم اختارت أغنية خليعة فغنت :

في صحتك

اشـــــربى حــــــتى تثـــــملى

ولا تضـــيـــــقى ذرعـــا بالســــرور

لقــــد حــــضــــرت ونصــــبت الـفخ

لـنفـــــــتح الـفـخ ســـــــويا

أنـا وأنت مــــعــــــا بمفــــــردنـا

مــــا أجـــمل أن تـكون مـــعى هـنـاك

ونكس أبى ذقنه وتلعثمت أمي. وتهامست المغنيات المحترفات: «ما أجدر هذه البنت بأن تغنى معنا!». ورجعنا إلى قصرنا آخر الليل وهى تحلم بأن يطرق بابنا فى الصباح حور محب. ولكن الأقدار كانت تعد لنا مفأجاة أخرى إذ كانت تعدها لمصر والإمبراطورية. دُعيت الماكرة إلى مقابلة تيى المَلكة العظمى ورجعت زوجة لولى العهد. وقلت لأمى: ألا يدعم فرعون شرعيته عادة بالزواج من أميرة ذات دم ملكى؟ فقالت لى أمى:

- لا أهمية لذلك إذا كان فرعون صاحب قوة مسيطرة، وقد وافق على اختيار عروس من بنات الشعب لابنه كما سبق أن اختار لنفسه.

وقبّلتنى هامسة فى أذنى:

- كونى عاقلة يا موت نجمت، لا شك فى أنك أفضل منها، ولكن لا حيلة لنا مع الحظ، فاقنعى بأنك ستصيرين من الأميرات، وبأن الدنيا ستُقبل عليك بقدر ما تبدين من إخلاص لأختك!

فقلت لها بصراحة ووضوح:

- سأتبع الحكمة مع المحافظة على الكرامة والإخلاص.

وهو ما حرصت عليه دائما ولم أنحرف عن خطه المستقيم. ولما خلوت إلى نفرتيتى سألتها :

ـ هل راق لعينيك حقّا؟

ومع أنها أدركت من أعنى فإنها تساءلت متغابية :

ـ من تعنين يا موت نجمت؟

ـ زوجك المقبل!

فقالت بحماس :

ـ إنه معجزة بين الرجال!

فسألتها بعناد :

ـ أهو كذلك كزوج؟

فأجابت بغموض :

ـ لا يمكن الفصل بين الكاهن والزوج!

وقرأت أفكارها كما أقرؤها عادة. سوف تقاسمه العرش ملكة وكاهنة. ولن يعجزها أن تظفر بمن يشبع عواطفها المتعطشة للحب والحياة. وقد مارست ذلك بكل طمأنينة، معتذرة أمام ضميرها بعجزه، لائذة بسياسته المعلنة فى الاعتماد على الحب ورفض العقاب والعنف، فلم تخش من جانبه انتقاما كسائر الفاسدين من معاونيه. وقد توكد لى عجزه وشذوذه من خلال اتصالاتى اليومية بحريمه. هناك يعرفون الحقائق التى تخفى عن أقرب المقربين من رجال الدولة. هناك تندروا بعجزه. وهنا فضحوا سر العلاقة الآثمة بينه وبين أمه، المرأة الوحيدة التى عبر عجزه فى حضنها، والمرأة الوحيدة التى أنجبت له ابنة. وذاك شذوذ لم تعرفه بلادنا على مدى تاريخها. من أجل ذلك ثبت لدى أن بلادى تمضى نحو مصير أسود. وعاهدت ضميرى أن أقف مع الحق حيث يكون. ومات أمنحتب الثالث، وتبوأت نفرتيتى العرش ملكة

عظمى مكان تيى . وعشنا أياما كئيبة فى طيبة ، ثم انتقلنا إلى أخت آتون أجمل مدينة عرفها الإنسان . واستقبلنا من الزمان أيام سرور ونصر ورخاء ، وأمهلت الآلهة للمارق ، فتركته يلغى وجودها ويصادر أوقافها ، ومهدت له أسباب النجاح والسرور ، حتى ظن الجاهل أن الفوز المبين قد تقرر للإله الجديد ولرسالته الخيالية فى الحب والسلام .
وقلت لأمى وليس معنا ثالث :

ـ أين الآلهة؟ ما لها لا تغضب لما حاق بها؟!

وإذا بأمى تقول :

ـ ذلك شاهد على صدق الإله الجديد يا موت نجمت!

فرمقتها بذهول ، وخُيِّل إلىّ أن دنيا تغرب وأن دنيا أخرى تشرق لا سبيل إلى الشك فيها . ولكن ليل الحلم أخذ ينقشع ويتلاشى ، وزمجرت عواصف الأحزان مكتسحة الداخل والخارج معا . وكلما عضنا الدهر قلت لأبى :

ـ ها هو ذا آمون يكشر عن أنيابه .

فيقول لى :

ـ لا ترددى أقوال الكهنة الحاقدين!

فأقول له :

ـ حدثنى يا أبى عن واجبك فى هذه الظروف .

فيقول باستياء :

ـ لست فى حاجة إلى من يذكرنى بواجبى يا موت نجمت!

ومرة سألت نفرتيتى :

ـ ألا تفعلين شيئا للدفاع عن عرشك؟

فقالت لى بحماس لم يجزْ علىّ :

ـ نحن نفنى فى خدمة عرش الإله الواحد .

لم تكن مخلصة . ولم تعرف الإخلاص الحقيقى فى حياتها . كانت تخشى إذا حذرت زوجها من مغبة عناده أن ينزع الثقة منها فيختار امرأة أخرى ملكة وكاهنة . ومن خلال محاولاتى الحذرة مع الرجال اكتشفت إخلاص توتو وزير الرسائل فاستمر الحوار بيننا حتى تكاشفنا تماما ، ثم كان الوسيط بينى وبين كاهن آمون الأكبر . وكانت تجربة أليمة خضتها بعذاب شديد . كان علىَّ أن أختار بين إخلاصى لأسرتى الجديدة وبين الولاء للبلاد والآلهة . واخترت بعد أن دفعت ثمن اختيارى ألما وعذابا ، هكذا انضممت إلى المعسكر الآخر ، معرضة عن مصلحتى الشخصية وسعادتى الأسرية . وقال لى توتو يوما :

ـ الكاهن الأكبر يطالبك بالسعى لضم الملكة إلينا !

فقلت له :

ـ لقد سعيت إلى ذلك من قبل أن أكلف به ، ولكنى وجدتها لا تقل جنونا عن المارق .

وبناء على ذلك أرسل الكاهن الملكة تيى إلى أخت آتون ، ثم جاء بنفسه ليلقى على الرجال إنذاره الأخير . وشد ما عارض توتو ذلك . كان يقترح الانقضاض عليهم دون إنذار ، ووضعهم جميعا فى الأغلال ، وإشعال النار فى المدينة المارقة . وكنت أود أن أضم حور محب قائد الحرس إلينا ، فهو صاحب القوة الحقيقية فى المدينة ، وعرف دائما بالصلابة والاستقامة . ومن خلال الأحاديث التى دارت بينى وبينه آنست منه اتفاقا فى الرأى يخفيه الحذر وافتقاد الثقة المتبادلة . ولما لاحت فى الأفق نذر الحرب الأهلية قلت له :

ـ علينا أن نعيد النظر فى مواقفنا .

فرمقنى بنظرة متسائلة ، فقلت بصراحة :

ـ لا يمكن أن نترك مصر تحترق وتصير رمادا .

فسألنى بدهاء :

ـ ألم تفاتحى أختك الملكة فى ذلك؟

فقلت بصراحة أذهلته :

ـ إنها لا تقل جنونا عن الملك!

فسألنى باهتمام :

ـ ماذا تقترحين؟

فقلت بحدة :

ـ كل شىء مباح لإنقاذ البلاد . .

ثم كانت النهاية التى عرفتها . نهاية مأساة فاقت مأساة غزو الهكسوس لبلادنا فى الماضى . مأساة خلقها جلوس مجنون على العرش مستغلا قدسية العرش التقليدية فى ممارسة نزواته . لا شك فى أن ذنب نفرتيتى أثقل من ذنبه لما خصت به من ذكاء ودهاء ، ولكنها لم تهتم إلا بذاتها وطموحها ، فلما تولى عنه المجد هجرته فى الحال ، منضمة فى الظاهر إلى أعدائه ، مرشحة نفسها ملكة تدعم العرش الجديد ، ولكن حيلتها لم تنطل على أحد ، فانقبرت فى وحدة مظلمة لتجتر العذاب والندم .

مـــرى رع

فى الحلقـة الرابعة، أسـمر خـمـرى ، نحيل، ذو نظرة حزينة تصلح عنوانا لمأساة، يعيش فى بيت صغير، بلا رفيق أ و خادم، ذلك الذى كان يوما الكاهن الأكبر للإله الواحد، فى مدينة النور أخت آتون . وقد زرته فى بلدته دشاشة على مبعدة من طيبة بمسيرة يومين إلى الشمال . ولما قرأ رسالة أبى سألنى باسما :

ـ ولم تتجشم هذا التعب؟

فقلت ببساطة :

ـ لأعرف الحقيقة .

فقال وهو يهز رأسه فى أسى :

ـ حسن أن يوجد ولو فرد واحد من طلاب الحقيقة .

ثم مضى يقول :

ـ لعلّى الشخص الوحيد الذى حُمل بالقـوة من أخت آتون بعد أن رفض التـخلى عن مـولاه، وقـد سكت الصـوت الإلهى وتهـدم المعبد، ولكن الدهر لم ينطق بالكلمة الأخيرة بعد .

ورنا إلىّ طويلا بعينيه البنيتين ومضى يقول :

ـ أسعدنى حظى فى صباى بأن أكون ضمن حاشية الأمير ، فملت مثله إلى الأمور الروحيـة، ودرسنا معـا ديانة آمـون وديانة آتون .

ومثل كثيرين فتنت به وأخذت بحديثه الساحر، ورُوعت بنضجه السريع الخارق للمألوف. وقد باركنى بقوله الذى غزا به قلوب أتباعه، فقال لى:

ـ إنى أحبك يا مرى رع فلا تضن علىّ بحبك.

فتغلغل حبه فى قلبى حيث لم تبلغ عاطفة من قبل، حتى أباح لى خلوته على شاطئ النيل، فى أى وقت أشاء. وهى خلوة فى الطرف الغربى من القصر، تطل على النيل، فى هيئة مظلة تقوم على أربعة أعمدة تحدق بها أشجار النبق والنخيل، أرضها من العشب النضير، تتوسطها حصيرة خضراء ووسادة. كان يستيقظ عند الفجر فيمضى إلى الخلوة ينتظر شروق الشمس، ويتغنى لقرصها البازغ من وراء الحقول. وما زال صوته العذب يجيش فى صدرى، وينتشر فى حواسى مثل رائحة البخور المقدس وهو يترنم:

إنك تسطع جميلا فى جبل النور فى السماء

يا آتون الحى يا من عاش أولا

إنك إذا أشرقت فى جبل النور الشرقى

ملأت كل بلد بجمالك

إنك جميل، إنك عظيم

إنك تتلألأ عاليا فوق كل بلد

وأشعتك تضم البلاد

وكل شىء خلقته

إنك بعيد ولكن أشعتك على الأرض

وكان يذوب من الوجد، وتنبثق من وجهه الصبيح الأنوار. ثم نتجول فى الحديقة وهو يقول:

ـ لا يوجد سرور خالص إلا فى العبادة.

ذلك أن حياته لم تخل من منغصات . وذات مرة تشكى لى قائلا :

ـ يأبى أبى إلا أن يجعل منى مقاتلا يا مرى رع!

لم يمر تدريبه العسكرى الفاشل دون أن يترك فى نفسه ألما يحز . أو ينظر فى المرآة المؤطرة بالذهب الخالص ، ويقول باسما :

ـ لا قوة ولا جمال!

أما موت أخيه الأكبر تحتمس فقد حفر فى وجدانه جرحا غائرا لعله لم يبرأ منه إلا حينما أصيب بجرح أشد بموت ابنته المحبوبة ميكيتاتون . شد ما بكى أخاه الذى نصبه موته وجها لوجه مع حقيقة الموت الصلبة الغامضة . وسألنى :

ـ ما الموت يا مرى رع؟

فلذت بالصمت متحاشيا الإجابات التقليدية التى يضيق بها . فعاد يقول :

ـ ولا آى نفسه يعرف ، قرص الشمس وحده يشرق بعد الغروب ، أما تحتمس فلن يرجع إلى هذا الوجود مرة أخرى! وهكذا أعلن حربا أبدية على الضعف والقبح والحزن . ومضى فى طريقه المجهول مثل شعاع الشمس ، تنذر بوادره كل يوم بجديد ، حتى لقيته ذات صباح مشرق شاحب اللون فى خلوته ، مستقر النظرة ، ثابت الجنان ، فقال لى دون أن يرد تحيتى :

ـ ليست الشمس شيئا يا مرى رع .

فلم أدرك مقصده فجذبنى إلى مجلسه فوق الحصيرة ، وقال :

ـ استمع إلى الحقيقة يا مرى رع . ليلة أمس أسكرنى الشوق بلا خمر ، وتجسد لى الظلام جليسا أنيسا كالعروس المتجلية ، وحلقت بى نشوة آسرة فى الفضاء ، وهناك عبر ألف خيال وخيال بزغت الحقيقة للفؤاد أقوى من أى منظر تراه العين ، وترامى إلىّ صوت

أجمل من عبير الأزهار فقال لى : «املأ وعاء قلبك بأنفاسى، واطرد عنه ما ليس منى، أنا القوة التى تتسلل منها قوى الوجود، أنا النبع الذى تتدفق منه الحياة، أنا الحب والسلام والسرور، املأ وعاء قلبك منى ويسره مشربا للمعذبين فى الكون».

ومن شدة تألقه تراجع رأسى فى انبهار، فقال لى :

ـ لا تخف يا مرى رع، ولا تبتعد عن السعادة!

فغمغمت وأنا ألهث :

ـ يا له من نور!

فقال بعذوبة صافية :

ـ تعال لتعيش معى فى الحقيقة . .

فاعتدلت فى جلستى وقلت :

ـ إنى معك إلى الأبد.

ومنذ تلك الساعة السعيدة صار أول كاهن للإله الواحد الذى لا إله غيره، وغدا معلمى وأستاذى، ورائد من لبوا النداء. وقلت له :

ـ آمنت بإلهك.

فقال بحبور :

ـ أحسنت، ولتكن أول كاهن فى معبده.

وأعلن إيمانه لخاصته، ولكنه لم يتعرض للآلهة إلا فيما بعد، وبالتدرج أيضا، فأعلن كفره بالآلهة الزائفة أولا، ثم ألغاها وودع أوقافها على الفقراء فى خطوة تالية. أما على عهد إمارته فلم يكن بوسعه فى حكم والده أن يكون صاحب قرار. وقد تزوج من نفرتيتى وهو ولى للعهد، فوهبه الزواج سعادة كبرى، غير أن أسعد ما أسعده حظى به فى إيمانها الصادق بإلهه. وفى أخت آتون تبوأت مركز الكاهن الأكبر للإله الواحد، ولما عزم مولاى على مصادرة المعابد قلت له :

- إنك تتحدى قوة ذات نفوذ قديم على الناس من النوبة حتى البحر.

فقال لى بثقة:

- ما الكهنة إلا دجالون، يستعبدون الضعفاء، وينشرون الخرافات، وينهبون الأرزاق، معابدهم مواخير، وقلوبهم ثملة بحب الدنيا..

فاكتشفت فيه قوة حقيقية أخفاها عن الأعين تهافت بنيانه، وشجاعة لا يحظى بجزء منها حور محب قائد الحرس أو ماى قائد الحدود. وقد حسبه أناس لغزا لا يحل، لكنه وضح بالنسبة لى مثل نور الشمس. لقد فنى فى حب إلهه وأحبه الإله فكرس حياته لخدمته ملقيا بالعواقب جانبا، فلم يلتبس على قرار من قراراته ولا موقف من مواقفه. لم أدهش لسلوكه فى رحلته المشهورة حول عالم إمبراطوريته، ولم أدهش لتمسكه برسالة الحب والسلام حتى فى أحرج الظروف، ولم أدهش لموقفه الأخير عندما تخلى عنه أقرب المقربين إليه. كان يعيش فى رحاب الإله ويصدع بأمره، ولا يبالى بعد ذلك بما يحيق به، إذ كيف يمكن من ينغمس فى الحقيقة أن يكترث لمكر الساسة ودهاء العسكريين؟! وقد رموه بالخيال والحلم والجنون، فكان هو العائش فى الحقيقة، وكانوا هم الخياليين الحالمين المجانين الغارقين فى أوهام الدنيا الفاسدة. ولم يكن العرش يهمه كما يهم الملوك العاديين. بل إننى أذكر أنه عندما دُعى من رحلته لتولى العرش بعد وفاة أبيه، تجهم وجهه وتساءل:

- ترى هل تشغلنى الشواغل عن إلهى؟

فقلت له بحماس صادق:

- بل إنك مدعو يا مولاى لوضع قوة العرش فى خدمة الإله، كما التزم أجدادك بخدمة آلهتهم الزائفة.

فسرى عنه وتمتم:

- نطقت بالحق يا مرى رع، فكما قدموا لآلهتهم قرابين من البشر

المساكين، سأقدم قوى الشر قرابين لإلهى، محطما الأغلال التى يرسف فيها من لا حول لهم.

واعتلى العرش ليخوض أشرس معركة خاضها ملك، ولكن فى سبيل الحقيقة والحب والسلام وسعادة البشر، وأثبت فى غمارها أنه أقوى عشرات المرات من تحتمس الثالث نفسه، وكان رجاله يمثلون أمام عرشه فتصرف نفرتيتى أمورهم اليومية، أما هو فلا ينى عن إعادة خلقهم من جديد ليكونوا جديرين حقّا بالنعمة الإلهية والنبل البشرى. وتجلى سحره كأقوى ما يكون فى نشر دعوته بالأقاليم، وقد فتن الناس به وسكروا بخمر رسالته وألقوا عليه محبتهم مع الأزهار والرياحين. وسكت مرى رع ليتنهد طويلا، ثم واصل حديثه:

- ثم جاءت سحب الأحزان يتبع بعضها بعضا مسوقة بأنفاس الحقد فى داخل البلاد وخارجها. وتلقاها كل رجل بحسب قوة إيمانه، ولم يعبأ بها مولاى وراح يردد:

- لن يخذلنى إلهى.

وقال لى يوما فى المعبد:

- الرجال ينصحوننى بالاعتدال وإلهى يأمرنى بالإيمان فأيهما أتبع يا مرى رع؟

ولم يكن سؤاله الساخر فى حاجة إلى إجابة. ولما مضت الأزمة فى الاشتداد جاء حور محب لمقابلتى فى المعبد وقال لى:

- أيها الكاهن الأكبر، إنك أقرب الرجال إلى الملك.

فأجبته وأنا أحدس ما سيقول:

- تلك نعمة الإله علىّ.

فقال بصراحة:

- الأمور تقتضى تغيير السياسة.

فقلت له بثبات :

ـ أستمع لصوت الحقيقة وحدها .

فقطب فيما يشبه الضجر وقال :

ـ أتوقع أن أسمع كلاما معقولا .

فقلت بحدة :

ـ لا تفاهم إلا بين المؤمنين .

ولما علمت بقرارهم فى التخلى عن الملك بحجة الدفاع عن حياته قلت لآى :

ـ من ناحيتى لا أقر العودة إلى الكفر .

ورفض مولاى التراجع خطوة واحدة، ولكن كانت له خطته أيضا فى تجنب الحرب الأهلية فكان عازمِا على مواجهة الشعب وحده والجنود المتمردين، وكان كامل الثقة بقدرته على إعادتهم إلى حظيرة الإيمان، ولكن الحاشية آمنت بأنه سيقتل حتما وأنهم سيلحقون به جزاء بقائهم على الولاء له. وتخلى عنه الجميع، وقد ضمونى إلى قافلتهم المرتدة بقوة الجند، وأمروا الحرس بمنعه بالقوة إذا صمم على مواجهة الشعب. وحيل بينه وبين ما يريد بالفعل، ووجد نفسه وحيدا حبيسا فى قصره، حتى نفرتيتى ذهبت مع الذاهبين، وعند ذاك غزا الحزن قلبه أمام ضعف الإيمان الذى بذل حياته الغالية فى بثه وتثبيته. وقيل لنا عقب ذلك إن المرض تمكن منه وقضى عليه. والحق أنى أشك فى ذلك، وأرجح أن الأيدى الآثمة امتدت إليه فى عزلته وانتزعت منه روحه الطاهرة الخالدة. وقد مات دون أن يعلم بأننى ما تخليت عنه إلا بالقوة، وفى اعتقادى أن نفرتيتى أبعدت عنه بالقوة أيضا، ولا أتصور غير ذلك أبدا.

وصمت مرة أخرى ليتنهد، ثم رنا إلىّ طويلا وقال :

ـ ولكنه لم يمت، ولا يمكن أن يموت، إنه الحقيقة الباقية والأمل

المتجدد، ولينتصرن عاجلا أو آجلا، ألم يعد الإله بأنه لن يخذله؟!

ومال إلى خزانة فاستخرج منها لفافة من البردى فأعطاها لى وهو يقول:

- إنها تحوى رسالته وأناشيده، اقرأها يا فتى، وليستجيبن لها قلبك المحب للحقيقة، فإنك لم تقم برحلتك لغير ما سبب . .

مـــــاى

سعيت إلى لقائه فى رنو كولبورا على الحدود حيث يقيم فى خيمة بين جنوده من جيش الحدود. كان على عهد إخناتون قائدا لجيش الحدود، وما زال يشغل مركزه بكل جدارة فى العهد الجديد. وقد وجدته كهلا عملاقا جاد الملامح معتزا بنفسه لحد كبير. وبعد اطلاعه على خطاب والدى قال بانفعال مرحبا بالفرصة التى دعته للتنفيس عن صدره:

ـ ذلك المارق، مجهول الأب، الذى أذل بشذوذه أعناق الرجال! لقد سكتت طبول القتال، ونكست رايات المجد، ليرتفع صوت الغناء والطرب من فوق عرش الفراعين من حنجرة امرأة قبيحة الوجه متنكرة فى إهاب الرجال. وقد أرغمت ـ أنا قائد الدفاع عن الإمبراطورية ـ على التجمد وأوصال الولايات تتمزق وتقع فى قبضة المتمردين والأعداء، واستغاثات المخلصين من أصدقائنا تتلاشى فى الهواء. أفقدنا ذلك المخبول شرفنا العسكرى، وجعلنا هزأة للمعتدين وفريسة سهلة لقطاع الطرق. ومن حسن حظى أننى لم أكن ضمن حاشيته وإن اقتضى واجبى التردد على أخت آتون بين الحين والحين. وفى كل مرة كانت تتملكنى الحيرة لخدع رجال مثل: آى وحور محب وناخت لغر مشوه، وولائهم المذهل له ما بين القصر والمعبد. وكنت وما زلت مخلصا لآلهة بلادى وتقاليدها

المتوارثة، يوم بلغنى كفره غضبت غضبا شديدا، وعقدت العزم على الانضمام إلى المؤمنين إذا شقوا عصا طاعته. ويوم صدر الأمر بإغلاق المعابد وتشريد الكهنة أيقنت من أن اللعنة الكبرى ستحيق بنا، وستوجه ضربتها إلى الجميع غير مفرقة بين الخبيث والطيب. ولدى زيارة لى لطيبة، جاءنى بليل الكاهن الأكبر لآمون، وسألنى:

ـ هل تجد حرجا فى هذا اللقاء؟

فأجبته بصراحة أدهشته:

ـ لى الشرف، وقصرى رهن إشارتك.

فشكرنى وقال:

ـ إنك من جيل الأبرار يا ماى. انظر إلى الناس كيف فقدوا السلوى والعزاء، كان أهل الإقليم يلوذون بآلهة ويقدمون القرابين، ويفزعون إلى كاهنهم فى الملمات فيرشدهم فى الحياة وحين الموت، ضاع المساكين كالأغنام الضالة..

فقلت بامتعاض شديد:

ـ وما جدوى التشكى؟! ألا ترى أن الواجب يطالبنا بالتخلص منه؟

فتفكر قليلا، ثم قال:

ـ ولكن ذلك سيجر علينا حربا طاحنة!

ـ ألا يوجد حل؟

فقال بيقين:

ـ إقناع رجاله المقربين!

ـ يا له من أمل بعيد!

فقال الرجل بحذر:

- لن نعمد إلى وسيلة يائسة قبل أن نستنفد جميع الحيل . .

فعاهدته قائلا :

- ستجدون جيش الدفاع وراءكم في اللحظة المناسبة .

ولكن نجاح حملة التحريض عليه اقتضت وقتا طويلا ، حلت فيه الكارثة بالبلاد ، فلم يبق إلاّ أن ننقذ ما يمكن إنقاذه من تحت الأنقاض . ولقد تساءل كثيرون عن سر المأساة . أقول لك إن سرها يكمن في ضعف المارق ، ضعف جسده وعقله معا . لقد أفرطت أمه في تدليله فنشأ شديد الحساسية لحد المرض ، داعيا بانحطاطه لدى المقارنة بأقرانه المميزين مثل : حور محب وناخت وبك ، فأخفى شعوره بالهوان وراء ستار رقيق من التواضع الأنثوي والعذوبة المخنثة ، على حين بيَّت الغدر لكل قوي ، إلها كان أو كاهنا ، ليخطر وحده في الساحة ، محتكرا لصوت الإله الذي اخترعه ، ولقوته غير المحدودة . من ناحية أخرى تصدى ضعفه لكل طامع كإغراء لا يقاوم . أجل ، لقد هرع إليه الرجال لا خوفا من قوته ، ولكن طمعا في ضعفه . من أجل ذلك أعلن رجال الإمبراطورية إيمانهم برسالته ، فبعث إليهم برسائل الحب حين تمردهم بديلا عن جيش الدفاع . ومن أجل ذلك أعلن الإيمان به رجال لا يرتقي الشك إلى عقولهم مثل : آي وحور محب وناخت ، وامرأة داهية مثل نفرتيتي . كان ضعفه الطعم الذي جُذبَ إليه المنافقون والطماعون واللصوص والفاسقون . ولبثوا يتابعوَن أناشيده في المعبد ثم ينهبون الأموال ويستغلون العباد ، حتى تهددهم الموت فتخلوا عنه وانضموا إلى أعدائه محملين بغنائمهم . لذلك أعلنت رأيي للكاهن الأكبر عند اشتداد الأزمة . قلت له :

- لا تقم بزيارتك لأخت آتون ، لا تنذرهم ، دعني أزحف عليهم وأبيدهم ليستقر قلب العدالة . .

وأيدنى توتو بحماس أشد، ولكن الكاهن الأكبر مال مع الحلم وحقن الدماء، فقال لى :

ـ حسبنا ما أصابنا .

وأدركت ما يجول بخاطره . إنه رجل داهية وينظر إلى بعيد . فقدر ولا شك أنه إن أذن لى فى القتال فقضيت على المارق ورجاله، أحرزت بحق الصدارة والبطولة، وحزت بذلك أقوى الأسباب لاعتلاء العرش . وعند ذاك سيجد على العرش ملكا قويا لا يمكن أن يتجاوز حجمه الطبيعى فى رحابه . لذلك جنح إلى السلم واختار للعرش غلاما لا حول له ليكبر ويتضخم على حسابه . وها هم أولاء اليوم يحومون حول العرش، الكاهن وآى وحور محب، ويتربصون بصاحبه . هكذا تجرى الأمور فى مصر التى نضب فيها معين الإخلاص .

على أى حال فنحن اليوم خير مما كنا أمس . لقد هُجر المارق مع ضعفه فمات غما، وها هى ذى الداعرة تنتظر النهاية وحيدة بين أطلال المدينة الكافرة .

وسكت ماى مضفيا على نبرته نغمة الختام، بيد أنى سألته :

ـ ونفرتيتى يا سيدى القائد؟!

فقال بلا مبالاة :

ـ امرأة جميلة خلقت لاحتراف الدعارة فشاء حظها أن تمارس هوايتها فى عشق الرجال من فوق العرش، ولا تصدق ما يحتمل أن تسمعه عن كفاءتها كملكة، فلو كان بعضه حقّا لا كله ما سقطت البلاد فى عهدها فى هوة الفساد والخراب، وقد تخلت عنه فى اللحظة التى فقد فيها نفوذه، ولكنها خابت فى ركوب السفينة الجديدة!

محـــو

زرته فى قـريته جنوبى طيبة يعيش من الزراعـة بعد أن كـان رئيسـا لشـرطة إخناتون فى أخت آتون. وهو فى الأربعين من عـمـره، غليظ القسـمات واضحـها، قوى البنيان، تطل من عينيه الصغيـرتين نظرة حزينة.

و لما قرأ رسـالتى شبك أصابعه فوق رأسه داعيـا بحسـرة ذكريات تولت، وأنشأ يقول:

ـ جفت ينابيع السرور من بعده، سامحتك الآلهة يا مصر!

بدأت عـلاقـتى به بطريقـة لا تتكرر ولا يحلم بمثلهـا أمثـالى. كنت جنديا من حرس القصر الفرعونى، وكنت ألمحه فى الحديقة من بعيد. وذات صباح رأيته مقبلا نحوى كأنما اكتشفنى لأول مرة فتحولت إلى تمثال بين يديه. نظر إلىّ طويلا حتى شعرت بنظرته تجرى مع دمى وتتردد مع أنفاسى. وإذا به يسألنى:

ـ ما اسمك؟

ـ محو.

ـ من أى مكان أنت؟

ـ من قرية فينا.

ـ صناعة أهلك؟

ـ فلاحون .

ـ لماذا اختارك حور محب فى الحرس؟

ـ لا أدرى .

ـ إنه يختار الشجعان .

فانتفض قلبى سرورا ولم أنبس ، فقال بثقة :

ـ إنك شاب صادق يا محو .

فطرت من الفرح ولزمت الصمت ، وإذا به يسألنى :

ـ أتقبل صداقتى؟

فتلاشى عقلى من الذهول وتمتمت :

ـ ما أرفع هذا الشرف عن متناولى!

فمضى باسما وهو يقول :

ـ سنلتقى كثيرا أيها الصديق .

تلك واقعة حقيقية ، فهكذا كان يختار رجاله . وترامت إلينا أنباء عن عبادته لآتون ، وتجلى إله جديد له ، كما عزفت على كثب منا أناشيده . وتفتح قلبى لكل ما يجىء منه . جذبنى إليه سحره النفاث وحبى العميق له . لعلّى لم أفهم مما سمعت إلا القليل ، ولعلّى تحيرت طويلا أمام إلهه الغامض الذى لا يتجسد فى تمثال ، ويعامل الناس بالحب دون العقاب ، ولعلّى لم أكفر بآمون ، ولكنى آمنت حبا فى مولاى ، خير البشر وأعذبهم وأرحمهم . عاش فى الحب للحب ، لم يصدر عنه أذى لإنسان أو حيوان ، لم يلوث يده بدم ، ولم يعاقب مذنبا . ولما اعتلى العرش استدعانى وقال لى :

ـ لا ألزمك بشىء تكرهه يا محو ، وسيجرى رزقك هنا أو هناك ، فهل ترغب فى إعلان إيمانك بالإله الواحد الذى لا إله غيره؟

فأجبت دون تردد:

- أعلن إيمانى بالإله الواحد يا مولاى، وأعلن استعدادى للموت فى سبيله.

فقال بهدوء:

- ستكون رئيسا للشرطة، ولكن لن يطالبك أحد بالتضحية بحياتك الغالية..

كنت على استعداد كامل لمقاتلة الكهنة أنفسهم الذين ترعرعت فى أحضان كلماتهم ورضعت حبهم وتقديسهم. ومع ذلك فلم تصدر عن يدى ضربة واحدة نحو أحد مذ عملت رئيسا لشرطته عدا ضربة واحدة انطلقت من يدى بلا إذن منه. ويوم تسلمت الرياسة قال لى:

- ليكن سلاحك منذ اليوم زينة، أدِّب الناس بالحب كما علمتك، ومن لم يؤدبه الحب يؤدبه المزيدِ من الحب..

وكنا نقبض على اللصوص فنسترد ما سلبوا، ونهيئ لهم عملا فى المزارع، ونلقنهم رسالة الحب والسلام. أما القتلة فيرسلون إلى المناجم، وتوفر لهم أسباب الراحة والرزق، ويتلقون فى أوقات الفراغ دروسا فى الدين الجديد. وكثيرا ما لقينا من ذلك ضروبا من الجحود والغدر، ولكن حرارته لم تفتر قط، وكان يقول:

- سترون قريبا شجرة الأمل مثقلة بالثمار.

كان إيمانه قويا راسخا متحديا لا يتزعزع ولا يهن، ذلك الملك العجيب الذى شبَّع الهواء بالسرور فى مدينة النور، وأثملت أناشيده قلوب الرجال والنساء والطير. كان يومه يمضى على غير ما عهد الملوك من آبائه وأجداده، فهو يتعبد فى الخلوة، يخطب من شرفة قصره، ويلقى أناشيده فى المعبد، ويتجول فى عربته الملكية فى شوارع أخت آتون، بصحبة الملكة، بلا حرس، مخالطا جموع شعبه، محطما الحواجز التقليدية بين العرش والناس، داعيا فى كل مكان إلى العبادة

والحب، والجميع من الوزراء حتى عمال النظافة يترنمون بنشيد الولاء للإله الواحد.

وذات صباح جاءني أحد معاوني وقال لى:

ـ ثمة همس بين الصفوة عن أنباء سوء!

باحت الأسرار بما أضمرت من فساد الموظفين ومعاناة الفلاحين وتفشى العصيان فى الإمبراطورية. خرجت الحشرات من جحورها زاحفة وجرى الغدر مع مياه النيل. وأشفق قلبى مما عسى أن يتسلل إلى مولاى من الكدر، غير أن الأحداث لم تزده إلا صلابة وإيمانا وثقة فى النصر. ولم يهن تمسكه بالحب، بل لعله قوى واشتد، وكأن الظلام لم يدلهم إلا ليعده بالنور القريب. وفى تلك الأيام الكالحة تسلل مجرم من صنائع الكهنة إلى خلوته ليغتاله فى غبش الظلام، وكاد ينجح لولا أن عاجلته بسهم فى صدره. وانتبه مولاى إلى ما أريد به فجعل يتفرس فى وجه المجرم وهو يلفظ أنفاسه، ووجم طويلا ثم نظر نحوى قائلا فى فتور:

ـ قمت بواجبك يا محو.

فهتفت منفعلا:

ـ إنى فداء لمولاى.

فسألنى بنفس النبرة الفاترة:

ـ أما كان فى مقدورك أن تقبض عليه حيا؟

فقلت صادقا:

ـ كلا يا مولاى..

فقال بأسى:

ـ دبر الأشرار مؤامرة لارتكاب جريمة يبغضها واهب الحياة فحيل بينهم وبينها ووقعنا نحن فى الشرك.

فقلت بحرارة:

- بعض الشر لا يصلحه إلا السيف!

فقال ساخرا:

- هكذا يؤكدون، ويكررون من قبل أن يوحد مينا القطرين، فهل محقوا الشر؟!

فأخذته نشوة مباغتة فهتف:

- متى يرى البشر المشرق والمغرب فى دفقة نور واحدة؟!

انحدرنا من سيئ إلى أسوأ، وتكشف الرجال عن أشباح خاوية، وجرفتهم رياح الخريف أوراقا صفراء جافة لا إيمان لها ولا وفاء، واعتصموا بالكذب لآخر لحظة فقرروا التخلى عنه باسم الدفاع عن حياته. وما أدرى إلا وحور محب يصدر لى أمرا بمغادرة المدينة على رأس جنودى. ولم يكن فى مقدورى مناقشته، وحتى توديع مولاى لم يسمح لى به. وذهبت إلى طيبة وبى غصة ندم لم تفارقنى حتى اليوم. وسُرِّحتُ فيمن سُرِّح من جنوده المخلصين فرجعت إلى قريتى كاسف البال إلى الأبد. وترامت إلينا نتف من أنباء مولاى السجين فى قصره، ثم أعلن خبر وفاته مريضا فلم يداخلنى شك فى اغتياله. كيف تلاشى الحلم الجميل بهذه السرعة؟! كيف تخلى عنه الإله بعد أن سكب فى أذنيه صوته المقدس الواعد؟ كيف وكيف أيتها الدنيا التى لا معنى لك؟!

وسكت وهو من الحزن فى غاية فاحترمت سكوته هنيهة، ثم سألته:

- ترى ما تصورك العام عنه؟

فأجاب فى حيرة:

- إنه روح العذوبة والصفاء، ولكنى لا أستطيع أن أقول عنه أكثر مما تقول الوقائع التى سردت..

- ونفرتيتى؟

ـ إنها الجمال والجلال .

فقلت بعد تردد :

ـ ما أكثر ما يقال عنها!

فقال بوضوح :

ـ أقول لك كرئيس للشرطة إننى لم أسجل عنها حركة سوء واحدة ، على الرغم من أننى قرأت فى أعين حور محب وناخت ومای نظرات جشعة مضمخة بأخبث الشهوات ، وعلى مدى علمى أنها لم تشجع أحدا على تجاوز حدوده . .

ـ لم انفصلت عنه فى رأيك؟

فأجاب فى حيرة :

ـ إنه لغز لم أستطع حله إلى الآن!

ـ يُخيّل إلىّ أنك كفرت بإله مولاك؟

فأجاب بعبوس :

ـ لم أعد أومن بإله!

ناخـت

سليل أسرة عريقة، ربعة، ذو وجه أبيض مشرب بحمرة، رزين أكثر من أى إنسان، فى الأربعين أو نحوها، كان وزير إخناتون، وهو يعيش اليوم فى مقاطعته بإقليم دكما فى وسط الدلتا. لم يشغل وظيفة فى الدولة الجديدة، ولكنه يدعى من حين لآخر لاستطلاع رأيه فى المشكلات الكبرى. رحب بى منوها بالعلاقات القديمة التى تربط بين أسرتينا ثم مضى يدلى برأيه ـ متجاوزا الأحداث التى باتت معروفة لدى وهو يقول:

ـ دعنى أخبرك بأننى رجل غير سعيد، لم أستطع أن أضطلع بمسئوليتى كما يجب، فأفلت منى الملك، وتمزقت تحت بصرى الإمبراطورية. لقد اعتزلت الحياة العامة، ولكن الهموم لم تعتزل قلبى. وكلما ألح علىّ الكدر ساءلت نفسى: أى رجل كان مولاى إخناتون الذى وُصف اليوم بالمارق؟

كنت من رفقاء صباه مثل: حور محب وبك، وعلى رغم كل ما يمكن أن يقال عن ضعفه وأنوثته وغرابة منظره فقد نجح فى حملنا على حبه، والإعجاب بقوة إدراكه ونضجه المبكر. ولكن ثمة نقطة ضعف اكتشفتها فيه قبل الآخرين وهى أن شئون الدنيا الواقعية لم تكن تهمه، وكانت تبعث فى نفسه الملالة والسقم. كان يرمق بعين ساخرة حياة أبيه اليومية التى تكون النواة الصلبة التى ترتكز عليها تقاليد العرش المقدسة

مثل : الاستيقاظ فى ساعة محددة ، والاستحمام ، والإفطار ، والصلاة ، واستقبال المسئولين ، وزيارة المعبد ، وكان يغمغم :

ـ أى عبودية !

كان يعبث بالتقاليد عبث طفل مدلل لذته فى التحدى وتحطيم الآنية الثمينة ، ومن ناحية أخرى كان يطمح إلى معرفة سر الكون ، والسيطرة على الحياة والموت . وتضاعف إصراره على ذلك بعد وفاة أخيه الأكبر تحتمس . لقد انكسر قلبه أمام الموت ، ولكنه صمم على أن يرد الضربة بلا هوادة . وكان ذا خيال وثاب ، وكان خياله من القوة بحيث وقع فى النهاية أسيرا له وهو لا يدرى . ونحن أيضا كان لنا خيال ، ولكننا كنا على وعى بأنه خيال . أما هو فكان خياله يتجسد له حقيقة واقعة . من أجل ذلك ظن به الجنون أو العته . كلا ، لم يكن مجنونا ولا معتوها ، ولكنه لم يكن طبيعيا أيضا . كان على حداثته مبعث قلق لوالديه وللكهنة ، ومصدر حيرة لنا نحن أصدقاءه المقربين . يشك فى آمون سيد الآلهة ، ويعبد آتون ثم يسر إلينا باهتدائه إلى الإله الواحد الذى لا إله غيره . لم أشك فى صدقه ، كما لم أشك فى خطئه . كان صادقا لأنه لم يكذب قط ، ولكنه لم يسمع صوت إله ، وكان المتكلم قلبه هو . وما من بأس فى أن يزعم ذلك كاهن من الكهنة ، أما أن يكون الزاعم وليا لعهد أمنحتب الثالث فالأمر يختلف . ولم يصمت ذلك الصوت الخفى ، ولكنه راح يبدع للناس رسالة فى الحب والسلام والسرور ، ويضمر للآلهة والمعابد وإمبراطوريتنا الفناء . وإذا بالشاعر يصير ملكا ، وإذا بالحلم يتجاهل الحقيقة ويحل محلها فتختل الموازين وتقع المأساة . ودعانا عقب جلوسه على العرش وعرض علينا دينه الجديد ! كان من رأيى الرفض ، وقلت لحور محب :

ـ قد يعدل عن غيه إذا وجد نفسه وحيدا .

فقال لى :

ـ سيجد غيرنا ممن لا خلاق لهم ولا خبرة فيجرون البلاد إلى الخراب .

فسألته :

ـ أليس من المحتمل أن يقع ذلك بأيدينا؟

فابتسم ساخرا وقال :

ـ إنه أضعف من أن يستهين برأينا !

وهز منكبيه وتمتم :

ـ إنه يملك الكلمات ونحن نملك القوة . .

من أجل ذلك أعلنت إيمانى بدينه بين يديه . واختارنى وزيرا فتلاشت مخاوفى أو كادت . وكنت ألقاه كل يوم سواء فى طيبة أو فى أخت آتون ، فأعرض أمور الإدارة والمال والمياه والأمن فيلوذ بالصمت تاركا الرأى والتوجيه للملكة التى أثبتت جدارة فاقت كل تصور ، أما هو فلم يتحدث إلا عن إلهه ورسالته ، وما يتعلق بذلك من توجيهات وقرارات . وواجهت أول تحد عندما أراد أن يعلن موقفه من الآلهة ، وحذرته من العواقب وإذا به يقول لى كالمعاتب :

ـ يا ضعيف الإيمان !

ومضى بى إلى الشرفة فأطل على الجموع المحتشدة ، وكانت له قوة السحر فى نفوسهم ، فأعلن قراره بقوة مخيفة وارتفع هتاف الجماهير إلى السماء ، وشعرت بأننى أصبحت لا شىء ، وأن ذاك البناء المتهافت يتفجر عن قوة مجهولة لا قبل لنا بها . وعلى رغم حكمة نفرتيتى كانت تسلم له فى رسالته وتتحمس لها كأنها هى صاحبة الرسالة . والحق أن ذلك أدهشنى حتى قلت لنفسى :

ـ هذه المرأة : إما أن تكون شريكته الروحية ، أو تكون أكبر ماكرة

عرفتها البشرية! وفى تقديرى أنه مما أكد له النجاح أنه لم يتصد لمعارضته سواى. فحور محب لم يتكلم إلا عندما بلغت الأزمة ذروتها، وأما آى المستشار فقد شجعه طيلة الوقت متظاهرا بالحماس والورع والتفانى فى حب الإله الجديد. ودعنى أصارحك بأننى أتهم ذلك الرجل بالمكر وسوء الطوية، إنه رسم خطة ليثب إلى عرش مصر، وإليك تصورى كاملا. لقد اختير معلما لولى العهد فوقف على نقاط ضعفه جميعا. هو الذى وجهه إلى ديانة آتون، وهو الذى بث فى روحه فكرة الإله الواحد وأنه صاحب رسالته. وهو الذى دبر زواجه من ابنته رغم علمه بعجزه، وأقنعها بالتظاهر بالإيمان الجديد. بذلك صار حما الملك ومستشاره المعروف فى مصر بالحكيم. وزين له مصادرة الآلهة ليوقع بينه وبين الكهنة والشعب فينتهى الصراع بعزله أو قتله إن لم يمت قبل ذلك لضعفه الطبيعى. ولم تكن تخفى عنه الأسباب التى ترشحه للعرش، فهو حمو الملك وهو الحكيم، وهو أيضا طاعن فى السن لا ييأس الطامعون فى العرش من انتظار أجله ليحلوا محله. ولعله رسم أيضا أن يتزوج من ابنته نفرتيتى فيدعم شرعيته وتستمر هى ملكة لمصر. ورأيى هذا لا يستند إلى تصورى وحده، ولكن لما وافانى به بعض العيون، ولكن أفشل خطته ولاء الشعب للملك أولا، ثم تولية الكهنة لتوت عنخ آمون عند ذروة الأزمة، ولكنى أعتقد أنه ما زال يجتر حلمه القديم.

ولم أستطع أن أبوح برأيى لأحد، ولكننى ثابرت على تقديم نصحى للملك، قلت له:

- لا شك فى أن إلهك هو الإله الحق، ولكن دع الناس إلى آلهتهم، شيد له فى كل إقليم معبدا وسيكون له النصر الأخير، ولكن جنب البلاد شر الفتن!

ولكن كان أسهل عليّ أن أزحزح الهرم عن موقعه عن أن أزحزح إخناتون عن قراره، وما زاد عن أن قال لى :

ـ يا ضعيف الإيمان!

وقمت بالمحاولة نفسها لإنقاذ البلاد من الفساد، والإمبراطورية من الضياع، قلت له :

ـ الدفاع عن النفس حق ولا يتناقض مع الحب والسلام .

فقال لى بحماسه العجيب :

ـ حتى الحيثيون أنفسهم سيخشعون لسحر الحب، الحب أقوى من السيف والكبرياء!

ولما تراكمت سحب الظلام اجتمعت سرا بكاهن آمون وقائد الدفاع ماى، وقلت لهما :

ـ لا بد من الإقدام على عمل وإلا فقدنا الجدارة والشرف .

فنظرا إلىّ مستطلعين فقلت :

ـ فليكف الكهنة عن إثارة القلاقل فى الداخل، وليزحف ماى بجيش الدفاع لإنقاذ الإمبراطورية .

فتساءل ماى :

ـ أزحف بلا أمر من فرعون؟

فقلت بهدوء :

ـ نعم . .

فتساءل الكاهن وكان أقوى ثلاثتنا :

ـ وبعد؟

فقلت :

ـ حينما يتم النصر لماى يطالب الملك بإطلاق حرية الأديان .

وإذا بالكاهن يقول لى :

ـ خطة غير حكيمة فقد يتمرد قواد الجيش على ماى إذا أمرهم بالزحف دون أمر فرعونى . .

ثم قطب حتى احتقن الدم بوجهه ، وقال لى :

ـ إنك تعمل لحساب مولاك يا نخت لا لحسابنا ، فلا شك فى أنه بلغك نجاحنا فى بث دعوتنا فى الأقاليم فقررت أن تحرمنا من جنودنا الموالين لنا . .

تلقيت الطعنة فى غضب وغادرتهما موقنا بأن أحدا لا يشغل باله إلا بمصلحته الذاتية ، وأن مصر ضائعة بين أوغاد ، وأن تبعة خرابها تقع على الجميع ما بين موالين للملك والمعارضين له لا على إخناتون وحده ، بل لعله أنقى المذنبين ضميرا وأصفاهم نية . لقد لعب به الدهاة ، ورسموا له خطة ماكرة ليحققوا فى رحابه جشعهم ، ثم ليرثوا ملكه عقب السقوط الحتمى ، ولكنه صدق كذبتهم وآمن بها ، وتفجرت من إيمانه قوة لم يعمل أحد حسابها ، فاجتاحتهم فترة من الزمن ، وغزت القلوب بسحر عجيب ، حتى ارتطمت بصخرة الواقع الحادة القاسية ، فانجلت عن مأساة وخراب ودموع ، ثم لاذ الانتهازيون الجشعون بقارب النجاة فى آخر لحظة ، تاركين ضحيتهم الأعجوبة يغرق وحده وهو لا يصدق أن إلهه المزعوم قد تخلى عنه حقًا . ومزق الجميع أقنعتهم ، وعلى رأسهم آى ونفرتيتى ، واختلفت مصائرهم ، ولكن لم ينل أحدهم جزاءه الحق ، باستثناء المارق المسكين ، ولدرجة ما نفرتيتى التى لم يقبل الكهنة توبتها الزائفة ، أما مصر فقد تحملت أخطاء الجميع وتعددت فى جسدها الجراح . .

وصمت الوزير طويلا ، ثم تمتم فى أسى عميق :

ـ هذه هى قصة الخداع والبراءة والحزن الأبدى . .

بنتـــو

كان طبيب إخناتون الخاص، وما زال يشغل نفس الوظيفة في قصر توت عنخ آمون، في الستين من عمره، نبيل المظهر، وينبض به عرق نوبي، وقد زرته في قصره الأنيق في وسط طيبة. وجدته هادئ الطبع، خافت الصوت، جم النشاط متأنقا في ملبسه. مضى يتكلم في استسلام لتيار الذكريات، قائلا:

- مهما قيل عن إخناتون الذي يعرف اليوم بالمارق فإن ذكراه تدفئ القلب بالحب، وتتحدى الذاكرة بعجائبها، هل حقًا عاش ذلك الرجل بيننا؟ هل حقًا كرس حياته للحب؟ وهل حقًا خلف وراءه هذه العواصف من الحقد والكراهية؟ وكلما تذكرته تذكرت معه القلق الذي أثاره في قلوب القريبين منه والبعيدين منذ صباه المبكر. كانت الملكة العظمى تيي تسألني:

- ما سر ضعفه يا بنتو؟

شد ما حيرني ذلك السؤال. لم يكن به مرض، ولكنه كان نحيلا هزيلا شاحب اللون، لا يمكن أن يصمد لمرض أو حادث، بخلاف شقيقه تحتمس القوي الجميل، ولم يحب الألعاب الرياضية ولا الطعام الجيد. وكنت أصلي إلى تحوت إله العلم وأقول له: «تعال إليّ وأرشدني فإني خادم في دارك». ولم ينفع معه عصير الأعشاب المباركة برقية إيزيس ولا تمائم تحت كاتب رسائل الآلهة. وبلغ الخوف غايته عندما

مسه المرض فى الخماسين، وجر معه أخاه تحتمس فرقدا فى حجرة واحدة. وقالت لى الملكة تيى:

ـ بهما إمساك، وانظر إلى صفرة وجهيهما..

ففحصتهما وقلت:

ـ بالقلب حرارة وفى البطن انتفاخ، لا بد من شراب يفرغ الأمعاء، ثم انقعوا جعة حلوة مع دقيق جاف لمدة ليلة واحدة ليأكلا منه أربعة أيام.

قبل أن تنتهى الأيام مات تحتمس القوى، ونجا الضعيف من كل سوء. ودار الصبى فى جميع أنحاء القصر يبحث عن شقيقه وقلبه يتقطع من الحزن. وكلما رآنى رمانى بنظرة احتجاج ويقول:

ـ تركت أخى للموت!

ونظر إلى أبيه وقال معاتبا:

ـ عندما أصير فرعون سأقتل الموت!

وسألنى يوما بحرارة:

ـ ألا يمكن أن يرجع تحتمس يوما واحدا؟!

فقلت له:

ـ صل للآلهة التى أنقذت روحك، أما الموت فلا رجعة منه. وكلنا سنموت..

فسألنى بحدة:

ـ لماذا؟

فقلت له ملاطفا:

ـ ردد الأغنية التى كنت تترنم بها مع أخيك الراحل:

أولئك الذين يتحدث الناس بكلامهم

أين ديارهم الآن؟

كأنها لم تكن

افرح حتى تنسى قلبك

فإن أوزوريس لا يسمع العويل

ولا ينقذ الصراخ إنسانا من عالم الأموات.

وصاحبه الحزن زمنا طويلا حتى خُيِّل إليّ أنه فاق أمه فى حزنه على أخيه. ومرة وأنا أتعهده بالرعاية الطبية سألنى:

ـ لم هذا الجهد كله طالما أننا كلنا سنموت؟

فابتسمت وواصلت عملى، فرجع يسأل:

ـ لم تبتسم كأنك لن تموت؟

فقلت له متهربا من مطاردته:

ـ سل معلمك آى.

فقال باستهانة:

ـ إنه لا يعرف أكثر مما تعرف.

وكان نضج حديثه مع هزاله وحداثته مما يهز النفس من أعماقها. وقد تابعت مغامراته الروحية بنظر ثاقب مسربل بالإعجاب الذى لا حد له، وقلت لنفسى: إن هذا الغلام ذو موهبة غامضة خارقة تستعصى على الإدراك، مثير للقلاقل، متحدية للقوى المتربصة به، فماذا يخبئ له الغيب إذا جلس يوما على عرش أجداده؟ وكان نشاطه ـ مع ضعفه ـ مما يبعث على الذهول.. كان ينام قليلا، يتعبد كثيرا كأنه كاهن، ويقرأ كثيرا كأنه حكيم، ولا يمل من طرح الأسئلة والنقاش. وضاق به الملك أبوه، فقال بمرارة:

ـ أثبت أنه جدير بأى كرسى إلا كرسى العرش!

ويوما لاحظت أنه يسترق من أبيه نظرة لم أرتح لها، فقلت له:

ـ إنك تدرك كثيرا من الأشياء، ولكنك لم تدرك عظمة أبيك بعد.

فقال بعصبية:

ـ ساءنى منظره وهو يلتهم الطعام.

كان ينفر من أصحاب الشهوات المسيطرة. وكنت أتصور أن سلامة الجسم هى أساس لسلامة الروح، فأثبت لى أن العكس صحيح أيضا، وأن قوة الروح قد تمد الجسم الضعيف بقوة تفوق إمكاناته. ولا أنسى قوله لى مداعبا:

ـ إنك تهتم بالجسم كأنه كل شيء بينا القوة الحقيقية تكمن فى الروح، هى الخالدة، أما الجسم فهو بناء مهلهل قذر سيئ الأخلاق سرعان ما يتقوض عقب قرصة حشرة!

وهتف وكأنه نسى وجودى تماما:

ـ لا أدرى ماذا أريد، ولكنى مليء بالرغبة، ألا ما أحزن الليل الطويل!

وكان يقبع فى الظلمة منتظرًا الشروق ثم يتلقى النور فيتألق بالفرح، حتى تلقى يومًا مع دفقة النور صوت الإله الواحد، وعصف الرعب بقلب طيبة المطمئن. وقلت لنفسى:

ـ إنه ليس نسمة من نسائم الربيع، ولكنه عاصفة من عواصف الشتاء!

واستدعانى الملك والملكة، وسألتنى تيى:

ـ ما معنى هذا الصوت يا بنتو؟

فقلت بحيرة:

ـ لعل آى الحكيم أقدر على الإجابة منى يا مولاتى .

فقال الملك بضجر :

ـ إنها تسألك كطبيب .

فقلت بإخلاص :

ـ لا أعرف عقلا أنضج من عقله يا مولاى .

فسألنى بحدة :

ـ أهو يعبث بنا؟

فقلت بإخلاص :

ـ إنه صادق وأمين .

ـ يبدو أنك لا تملك تفسيرا لذلك .

ـ هذا حق يا مولاى .

فسألنى مقطبا :

ـ أأنت مؤمن بسلامة عقله؟

ـ أجل يا مولاى .

ـ ألا يحتمل أن يصدر صوت عن قوة شريرة؟

فقلت بصدق :

ـ العبرة بما يدعو إليه .

فهتف غاضبا :

ـ العبرة بما سيرسل علينا من زوابع .

وجاء زواجه من نفرتيتى مبشرا بآمال كثيرة فأمل والداه كما أملنا نحن أن الزواج سيعقل من اندفاعه ويرده إلى الاتزان والرؤية العملية . ولكن الزوجة كانت كاهنة فانطلقا فى طريقهما حتى نهايته لا توقفهما قوة فوق الأرض . ومات أمنحتب الثالث وخلفه صاحب الرسالة ،

وشعر الجميع بدنو المعركة وتوترت الأعصاب لأقصى حد. ودعانى الملك فيمن دعا من رجاله وخيرنى بين الإيمان بدينه وبين ممارستى لحياتى كيفما أشاء بعيدا عن بلاطه، ولم أتردد فى الاختيار فأعلنت بين يديه إيمانى بالإله الواحد. لم يكن فى وسعى الانفصال عنه أو الاستهانة بجاذبيته الفائقة، كما أننى أحببت إلهه واعتبرته فيما بينى وبين نفسى كبير الآلهة مع حفاظى على إيمانى القديم بسائر الآلهة، وبخاصة تحوت إله العلم الذى أداوى المرض بتمائمه وتعاويذه. وتعاقبت الأحداث كما عرفت، ومضى الرجال يشيدون للإله الجديد مدينته، وانتقلنا إليها فى جمع زاخر ونحن نردد الأناشيد، واستخف الفرح الملك فهتف ووجهه يطفح بالبشر:

ـ ها نحن أولاء ضيوفك يا إلهى فى مدينتك الطاهرة التى لم تلوث بعبادة إله زائف. .

واستقبلنا عهدا سعيدا تمنينا معه الخلود على الأرض، وجعلت أقارن كل صباح بين ما يلقى علينا فى المعبد وبين طقوس الآلهة القديمة وأشعار كتاب الموتى فلم يخامرنى شك فى أن دفقات من نور صاف تملأ أرواحنا بخمر إلهية صافية.

وعرض لنا أول عارض من كدر بوفاة الأميرة المحبوبة ميكيتاتون. وقد توسل إلىّ قائلا:

ـ بنتو، أنقذ محبوبة قلبى.

ولما لفظت الجميلة أنفاسها أجهش فى البكاء كما نفرتيتى وأكثر، وعاتب إلهه عتابا تجاوز حد الصبر، حتى قال له مرى رع الكاهن الأكبر:

ـ لا تغضب الإله بدموعك يا مولاى.

فانفجر مولولا، من الحزن أو الندم أو كليهما معا. وهتفت نفرتيتى:

ـ ما هو إلا سحر كهنة آمون!

وكانت تردد ذلك القول كلما أنجبت بنتا وضاعت فرصة جديدة لإنجاب ولى العهد. وكان هو يشاركها الألم، ويحزن لحزنها، فسألنى مرة:

ـ أليس لديك من نصيحة تجدى لإنجاب ذكر؟

فقلت له:

ـ أبذل جهدى يا مولاى.

فسألنى:

ـ أتؤمن بسحر الكهنة؟

فقلت كارها:

ـ لا يجوز الاستهانة به.

فتفكر مليا، ثم قال لى واجما:

ـ لينتصرن الإله الواحد، ويملأن الكون بأفراحه، ولكننا نحن البشر لن نخلو من أحزاننا الصغيرة.

لذلك كان سرعان ما يعبر جسر الحزن لينغمس فى نور الحقيقة. ولما تتابعت كربات الأزمات فى الداخل والخارج، أرسل إلىّ كاهن آمون الأكبر رسولا سريا، ذكرنى بعرض طلبى العلم فى معبد آمون، ثم طرح علىّ هذا السؤال:

ـ أيمكن الركون إليك لإنقاذ الوطن من الخراب الذى يتهدده؟

فأدركت من توى أنه يطالبنى كطبيب باغتيال الملك، ولذلك قلت له بنبرة حاسمة:

ـ مهنتى تأبى الخيانة.

اجتمعت بمحو رئيس الشرطة وطلبت منه مزيدا من مراقبة الطهاة، هذا والأمور تمضى من سيئ إلى أسوأ.

وسكت الطبيب بنتو وقتا ينشد شيئا من الراحة فى خضم الذكريات المرهقة فتذكرت ما سمعت من أقوال متضاربة عن حياة إخناتون الجنسية، ورجحت ألا يعرض الرجل لها، فسألته عنها مدفوعا بحب استطلاع لا يقاوم. وعند ذاك قال:

ـ كان جسمه يجمع بين خواص الذكر والأنثى، كذلك قسمات وجهه، ولكنه كان رجلا قادرا على الحب والإنجاب.

ارتعشت شفتاى بسؤال مضطرم، وترددت طويلا، ثم استجمعت شجاعتى وسألته:

ـ هل ترامى إليك ما قيل عن علاقته بأمه؟

فتجهم وجهه وأجاب:

ـ وسمعت مثلما سمعت أنت، ولكنى أعتقد أنه محض افتراء!

وتريث ووجهه يزداد تجهما، ثم قال:

ـ المسألة أنه كان إنسانا فاق سموه أى إنسان، يبشر بمملكة إلهية لا تتوافق مع طبيعة البشر، فأشعر كل فرد بتفاهته، وتحداه باستفزاز لا قبل له به، فانهالوا عليه بالغضب البائس والحقد الحيوانى..

فسألته متشجعا بسماحته:

ـ وما رأيك فى نفرتيتى؟

ـ ملكة عظمى بكل جدارة.

ـ وكيف تفسر انفصالها عنه؟

ـ لدى تفسير واحد، هى أنها لم تصمد للضربات المنهالة فأصيبت بانهيار، فهربت بمرضها مغلوبة على أمرها.

ثم واصل حديثه قائلا:

ـ وبلغت المأساة ختامها الأسود بصدور قرار التخلى عنه، وقد استأذنت حور محب فى السماح لى بالبقاء إلى جانبه بوصفى طبيبه الخاص فأخبرنى بأن الكهنة قرروا إرسال طبيب من لدنهم! ولكنه سمح لى بفحصه إذا شئت قبل الرحيل. وذهبت من فورى إلى القصر الذى لم يبق به إلا نفر من العبيد، ومجموعة للحراسة اختارها أعداؤه. وجدته فى خلوته وحيدا وكان يصلى، مغردا بصوته الحنون:

إنك جـــمــــيل.. إنـك عظـيم

بك يـفـــرح قلـب الإنســـان

وتخـضـر الأشــجـار والأعـشـاب

وتـرفـــرف الطـيـــور

وتـقـــفـــز الحـــمـــلان

خلـقت مــلايـين الأشــبـــال

إنـــك فـــى قـــلـــبـــى

ولـيـس هنـاك مـن يـعـــرفـك

غــيـــر ابنـك إخـناتـون.

ولما فرغ من صلاته نظر نحوى باسما فغضضت بصرى دامع العينين.

سألنى:

ـ كيف تيسر لك أن تجىء يا بنتو؟

فقلت بصوت متهدج:

ـ سمح لى بأن أفحص مولاى قبل الرحيل.

فقال فى هدوء:

ـ إنى فى خير حال يا بنتو.

فقلت بأسى :

ـ جميع الأوفياء أكرهوا على الذهاب .

فقال باسما :

ـ أعرف من ذهب باختياره ومن ذهب على رغمه .

فانحنيت حتى لثمت يده وأنا أقول :

ـ يعز عليّ أن تبقى وحدك .

فقال بهدوء :

ـ لست وحدى يا ضعيف الإيمان .

ثم بقوة منعشة :

ـ يتصورون أن الهزيمة حلت بى وبإلهى ، ولكن إلهى لا يخون ولا يقبل الهزيمة .

وغادرته متورم العينين من البكاء وأنا على يقين من أن الطبيب المنتدب ليحل محلى سيزهق باغتياله أنبل روح حلت بجسد بشرى .

وغصت فى وحدة لم أخرج من وحشتها حتى الساعة . .

نفــرتيتــى

سُمح لى بدخـول أخت آتون بإذن خـاص من القـائد حـور مـحب. مراكز الحراسة المتقاربة تمتد بطول شاطئها على النيل. اخترقت نصف المدينة الشمالى ما بين المرسى وحتى قصر الملكة السجينة، يتقدمنى جندى من جنود الحراسة. وطيلة مسيرتى تلقيت من الذكريات تيارا مفعما بالزبد واللآلىء، متلاطما بين العبر والدهشة، تحلق فوقه غربان الفناء. اختفت أرض الشوارع العملاقة تحت ركام الأتربة ونثار أوراق الأشجار الجافة. وخليط من الأخشاب التى نزعتها العواصف من النوافذ والأبواب. البوابات الكبيرة مغلقة كالجفون المسدلة على أعين باكية، وجفت الحدائق فتلاشت خضرتها وألوانها، ولم يبق منها إلا جذوع خشنة ضامرة كالجثث المحنطة وجواسق متداعية وأسوار منهارة، يخيم فوقها صمت ثقيل مكتوم الزفرات، وفى الوسط مجموعة هائلة من الأنقاض هى ما تخلف عن معبد الإله الواحد المتهدم الذى تجاوبت فى أركانه أعذب الألحان المقدسة. اخترقت الكآبة والوحشة والخوف تطل من أعينها نظرات الحقد والانتقام، ويطبعها بطابعه الموت بملامحه الرهيبة الأبدية. كان الوقت عصرا ونحن نقبل على قصر الملكة فى أقصى الشمال، وقد تبدى شامخا بأبعاده، مضيئا بحديقته الغناء، حزينا بنوافذه المغلقة عدا نافذة واحدة خفق لمرآها قلبى. وكان الخريف يتوسط عمره، والفيضان محتفظا بفيض من فتوته، والماء ضاربا إلى الاحمرار

الداكن، فامتلأت منه بحيرة القصر الصناعية. خفق قلبى وأنا أقترب من ختام رحلتى، وكأننى لم أقم بمغامرتى المثيرة إلا من أجل لقاء هذه السيدة الوحيدة.

ووجدتنى فى حجرة صغيرة أنيقة، زخرفت جدرانها بالكلمات المقدسة، فى صدرها كرسى من الآبنوس يقوم على أربعة أسود من الذهب، وبين يديه يقع كرسى من الآبنوس ذو مقبضين من الذهب الخالص. وجاد الزمان بالرؤية فرأيت السيدة العجيبة مقبلة فى ثوب أبيض فضفاض، رشيقة جميلة عظيمة، لا ينحنى ظهرها تحت وطأة أربعين عاما مثقلة بالمحن وسوء المآل. جلست وأشارت إلىّ بالجلوس وطالعتنى بعينين ساجيتين تنداح فى جمالهما الملالة. بدأت بالثناء على أبى، ثم سألتنى بمرارة:

- كيف وجدت مدينة النور؟

فغضضت بصرى المفتون بجمالها ولذت بالصمت، فأنشأت تقول:

- لقد سمعت الكثير عنه وعنى فاستمع الآن إلى صوت الحقيقة.. شببت وترعرعت مليئة بحب الحقيقة والدنيا منتفعة بحكمة أبى آى. لم أشعر بفقد أمى فى عامى الأول لما وجدته عند تى من حنان قلب كبير فكانت لى أما لا زوجة أب، ووهبتنى طفولة سعيدة. ولم تتبدل عواطفها بمولد أختى موت نجمت بفضل حكمتها، ونشأنا أختين متحابتين، وإن جنى على تفوقى بعد ذلك ما يجنى من إثارة للغيرة والحسد، وإن لم يستفحل ذلك بيننا إلا فيما بعد. وظلت تى على حنانها لا تفرق بيننا، على الأقل فى الظاهر، فشكرت لها ذلك، وكافأتها عليه فى حينه فاخترتها مربية للملكة وأنزلتها بمنزلة الأميرات، وذات يوم جاءنا أبى برجل مبارك ممن يقرءون الغيب، فنظر فى طالع الأختين، وقال:

ـ هاتان البنتان ستجلسان على عرش مصر .

فدهش أبى وسأله :

ـ الاثنتان؟ !

فأجابه بيقين على مسمع منا :

ـ الاثنتان .

وتحيرنا طويلا بين الإيمان بالرجل وغرابة نبوءته ، حتى قلت ضاحكة :

ـ قد تجلس إحدانا ثم تخلفها الأخرى .

ولم ترتح تى إلى ما يشير إليه قولى من معنى ، فقالت بحزم :

ـ لننس هذه النبوءة وندع المصير للآلهة !

وصممنا على نسيانها ، ولكنها كانت تلوح فى أفق الخيال بين الحين والحين ، حتى جاءت الحوادث ففجرتها تفجيرا . وسمعت عن إخناتون أول ما سمعت عن طريق أبى بعد أن اختير معلما له . كان ينوه فى مجالسنا العائلية بعقله ونضجه المبكر . ومرة قال عنه :

ـ يا له من شخص مثير ! إنه ينتقد الآلهة والكهنة ، ولم يعد يؤمن إلا بآتون ! وبخلاف أمى وأختى وجدت صدى لما يقول فى نفسى ، إذ كنت أعشق آتون أيضا ، أعجب بجاله الشامل للسماء والأرض ، على حين تقبع الآلهة فى ظلام المعابد . لذلك قلت ببراءة :

ـ معه الحق كل الحق يا أبى .

فأسخط قولى أمى وأختى ، أما أبى فقال باسما :

ـ نحن نعدك لتكونى زوجة لا كاهنة .

لكننى خلقت لأكون كاهنة مع حبى للأمومة والمجد الدنيوى ! ولما نقل إلينا أبى أول نبأ عن الإله الجديد ، الواحد الذى لا إله غيره ، زلزلنا

بعنف، وثارت العواطف لأقصى حد، وتعرض ولى العهد لقارص الكلمات. وسألته أمى:

ـ ما رأى الملك والملكة؟

فقال آى واجما:

ـ ثمة أزمة فى القصر لم يشهد لها مثيلا من قبل.

وقالت أمى بإشفاق:

ـ أخشى أن يوجه إليك لوم بوصفك معلمه.

فقال بأسى:

ـ لكنهما أدرى بابنهما، وبأنه لا ينساق وراء أحد مهما جل شأنه.

فقالت موت نجمت:

ـ إنه مجنون، وسيفقد عرشه، أليس للعرش وريث آخر؟

فقال أبى:

ـ ليس له سوى أخت كبرى عليلة..

وفى أثناء الحوار كنت أموج بعواطف عنيفة حتى خفت أن يغمى علىّ. تمثل لى ولى العهد أسطورة ذات جاذبية لا تقاوم. لكننى ترددت عن اتخاذ قرار ووقعت فى العذاب. وذات مساء سمعت خفية أبى وهو يتلو وحده نشيدا من أناشيد الأمير:

إنك جميل.. إنك عظيم

بك يفرح قلب الإنسان

وتخضر الأشجار والأعشاب

وترفرف الطيور

وتقفز الحملان

فحفظته وأنا فى نشوة مسكرة، ورحت أردده وقلبى يتفتح له ويمتلئ

برحيقه. انجذبت إليه انجذاب الفراشة إلى النور. وتقرر مصيرى بأن أكون الفراشة التى تنجذب إلى النور حتى يهلكها. وغزانى الإيمان بقوة ولطف فى موكب مغرد بالأهازيج، واهبا الطمأنينة والسلام. وهمست:

- يا إلهى الواحد، إنى مؤمنة بك، إلى الأبد.

وأظهرت نفسى لأبى وأخذت أردد النشيد فرمقنى مقطبا وهو يتساءل:

- تسترقين السمع؟

فتجاوزت عتابه وسألته:

- ما رأيك يا أبى فى الصوت الذى سمعه؟

فأجاب ببرود:

- لا أدرى.

فسألته بجرأة:

- أيحتمل أن يكون كاذبا؟

فصمت مليا، ثم قال:

- إنه لا يكذب أبدا.

- إذن فهو صوت حقيقى!

فبدا مترددا ومشفقا، ولكنه قال:

- ربما كان حلما ما سمع!

فقلت بنبرة تسليم واعتراف:

- أبى، إنى مؤمنة بالإله الواحد!

فتغير لونه وهتف:

- حذار يا نفرتيتى، احتفظى بسرك فى قلبك حتى أقتلعه منه!

ودُعينا كما تعلم للمشاركة فى حفل عيد الجلوس. وقالت لنا تى:
ـ يجب أن يراكما أنبل شباب مصر وأنتما فى أجمل زينة.

غير أننى كنت متلهفة على رؤية شخص واحد، ذلك الذى هدانى إلى نور الحقيقة. وفى البهو العظيم رأيت أفرادا قدر لى أن أخوض معهم بحر الحياة بحلوه ومره مثل: حور محب وناخت وبك وماى وغيرهم، ولكن قلبى لم ير فى الواقع إلا مولاى. وأعترف لك بأن منظره صدمنى صدمة غير متوقعة. تصورته تمثالا من نور، ولكنى وجدته نحيلا متهافتا مخيبا للأحلام. وأفقت من هزيمتي العابرة بسرعة، تجاوزت المنظر المثير للرثاء إلى الروح الكامنة فيه، التى اختصها الإله بحبه ورسالته، وأعلنت لها فيما بينى وبين نفسى الولاء إلى الأبد. كان يجلس إلى يمين أبيه يتابع الرقص والغناء بعين فاترة. ولم تتحول عنه عيناى، ولعل كثيرين لاحظوا ذلك وفسروه بحسب أهوائهم، ثم أعادوا تفسيره على ضوء الحوادث التالية. ولن أنسى ما قالته لى موت نجمت فيما بعد وهى تعانى لدغة الغيرة:

ـ لقد حددت لك هدفا ونلته!

وتمنيت أن ينظر نحوى. وقد فعل. ألقى إلينا نظرة عابرة فالتقت عينانا لأول مرة. وهمّ بأن يمضى بنظرته المملولة، ولكنه توقف فيما يشبه الدهشة. وكأنه بهر، أو تساءل: عمن تكون تلك الفتاة التى تحدق فيه بنهم. وحانت منى التفاتة إلى الملكة العظمى تيى فوجدتها تنظر نحوى كذلك فاضطرب فؤادى أيما اضطراب. وحلقت أحلامى فى آفاق بعيدة، ولكنها لم تقترب فى هيمانها من الواقع الذى جاءت به الأحداث. ورجعنا إلى قصرنا وصدورنا تجيش بآمال غامضة، وموت نجمت غارقة فى كآبتها. ولما خلت إلىّ فى غرفتى قالت بانفعال:

ـ توكد ظنى!

فسألتها عما تعنى، فقالت:

ـ إنه مريض ومجنون!

فعرفت بالبداهة من تعنى، فقلت:

ـ لقد رأيت مظهره، ولكنك لم تخبرى قلبه. وقال لنا أبى فى اليوم التالى:

ـ الملكة تيى دعت نفرتيتى لمقابلتها.

وهز الخبر الأسرة هزة عنيفة، وتبادلنا نظرات متسائلة. أما أبى فقال:

ـ لا شك فى أن وراء ذلك شيئا من الرضا أو الإعجاب..

وقالت تى بمباهاة:

ـ أتنبأ بأنها ستضمك إلى حاشيتها الخاصة.

وذهبت برفقة أبى. وقادونى إلى استراحة الملكة المطلة على الحديقة الداخلية. سجدت بين يديها، ثم أذنت لى بالجلوس على أريكة إلى يمين مجلسها. وجعلت تتفحصنى غير عابئة بحساسيتى، ثم سألتنى:

ـ اسمك نفرتيتى؟

فأجبت بإحناءة من رأسى، فقالت بلطف:

ـ اسم على مسمى!

فشعرت بالفرح يشتعل فى وجنتى.

ـ ما عمرك؟

ـ ستة عشر عاما.

ـ تبدين أنضج من ذلك!

ثم فيما يشبه الدعابة:

ـ لماذا دعوتك فى ظنك؟

فألهمت أن أجيب :

ـ الخير هو فوق ما أستحق .

فابتسمت قائلة :

ـ إجابة حسنة ، ماذا حصلت من العلم؟

ـ القراءة والكتابة والحساب والشعر والتاريخ والدين بالإضافة إلى الثقافة المنزلية .

ـ وما رأيك فى مصر؟

ـ سيدة الدنيا وملكها ملك الملوك .

وباهتمام سألت :

ـ من إلهك المفضل؟

فقلت مضطرة إلى قول الحقيقة :

ـ آتون يا مولاتى .

ـ وآمون؟

ـ هو مشيد الإمبراطورية ، أما آتون فهو الذى يطوف بها كل يوم!

ـ لا سلطان على ما ينبض به القلب ، ولكن يجب الإقرار بأن آمون هو كبير الآلهة .

فقلت بتسليم :

ـ هو كذلك يا مولاتى .

ـ بصراحة هل ذاق قلبك الحب؟

فقلت دون تردد :

ـ كلا يا مولاتى .

ـ ألم يتقدم أحد لخطبتك؟

ـ كثيرون ، ولكن أبى لم يجد فى أيهم الكفاءة .

وتفرست فى وجهى مليا، ثم سألتنى :

ـ ما شعورك بصراحة عما يقال عن انحراف ولى العهد عن آمون؟

ولأول مرة تجمد لسانى فلم أنبس، فقالت بنبرة ملكة :

ـ أجيبينى بصراحة!

فأسعفنى دهائى، فقلت :

ـ مهما يكن من أمر قلبه فيجب المحافظة على التقاليد المرعية بين العرش والكهنة.

فابتسمت فى ارتياح وقالت :

ـ إجابة حسنة.

ثم اعتدلت فيما يشبه الدلال وسألت :

ـ حدثينى عن فتى أحلامك، كيف تودين أن يكون؟

فتريثت فى ارتباك، ثم تمتمتَ :

ـ أن تكون له قوة المحارب وروح الكاهن.

فقالت ضاحكة :

ـ إنك طموحة جداً، من تفضلين إذا خُيِّرت؟

ـ أفضل صاحب الروح.

ـ حقّا؟

ـ أجل يا مولاتى.

ـ لست كغيرك من البنات.

ـ لا دنيا عندى بلا دين.

ـ وهل دين بلا دنيا؟

فتراجعت قائلة :

ـ ولا دين بلا دنيا.

وصمتت طويلا وأنا أكتم انفعالاتى المتصاعدة، ثم سألتنى :

ـ أرأيت ولى العهد؟

ـ فى حفل عيد الجلوس يا مولاتى .

فسألت بصوت غريب :

ـ وكيف ترينه؟

ـ إنه يتفرد بقوة خفية تميزه عن سائر الشباب . .

ففاجأتنى متسائلة :

ـ أعنى كزوج؟

وخرست من هول المفاجأة حتى كررت السؤال فقلت بصوت متهدج :

ـ لا تسعفنى الكلمات يا مولاتى .

ـ ألم يساورك حلم يوما بأن تصيرى ملكة؟

ـ أحلامى جزء من قلبى المتواضع .

ـ ألا يفتنك العرش؟

ـ إنه فى سماء لا ترتفع إليها أحلامى .

فصمتت قليلا، ثم قالت :

ـ اخترتك زوجة لابنى ولى العهد .

فأغمضت عينى من شدة التأثر، ثم قلت عندما استرددت قدرتى :

ـ ولكنه لا يعرفنى ولا يهتم بى .

فقالت باعتزاز :

ـ ولكنه يذعن لمشيئتى عن حب راسخ . .

ثم مواصلة الحديث بجلال :

ـ يهمنى فى المقام الأول أن أجد له شريكة مناسبة، ولما رأيتك

ألهمنى حدسى بأنك الشريكة المطلوبة، وإنى أومن بالحدس إيمانى بالعقل.

فأخرسنى التأثر الشديد عن التفوه بأى كلمة واستمرت هى تقول:

ـ ولكن الملكة خلقت للواجب قبل كل شىء، ما رأيك فى ذلك؟

ـ أرجو أن أكون كما تودين يا مولاتى.

فقالت بصوت نافذ:

ـ عدينى بالتعاون معى دون قيد أو شرط.

فقلت وأنا لا أقدر مسئولية قولى:

ـ إنى أعدك بذلك.

ـ وأنا مطمئنة إلى شرف كلمتك.

كاد الامتنان يشلنى عن التفكير، ولكن ما إن غادرت محضرها حتى شعرت بأننى أرسف فى أغلالها، وبأنها قوة لا يمكن الاستهانة بها، وبأنها رقيب يرصدنى من الداخل والخارج معا. وتذكرت ولى العهد فأيقنت من أن جلاله مهما جل فإنه لن يسوغه لى كزوج، وأننى سأدفع ثمن المجد غاليا. وذهلت الأسرة للخبر وثملت به. أجل، يمكن تصور أثره فى أعماق قلب موت نجمت، ويمكن تصور مشاركة تى لابنتها فى عواطفها الخفية، ولكن الحظ تدفق تلك المرة كالسيل ليغمر الجميع بفيضه وإن تفاوتت الدرجات. وإن يكن وعدني بالعرش فقد رفعهم إلى مقام الأسرة المالكة. من أجل ذلك أقبلوا علىّ يسدون إلىّ القبلات وأطيب الدعوات. وتذكرت النبوءة وكيف تحققت بمعجزة فهل تتحقق أيضا لموت نجمت؟ وساورنى قلق. ولعل موت نجمت تذكرت ذلك أيضا فشحذت صبرها ونواياها، ولكننى صممت على طرد المخاوف.

ودعانى أبى إلى حجرته وقال لى بحنان:

ـ اليوم تسعد أمك فى قبرها.

فقلت بأسى :

ـ لعلها .

فسألنى باسما :

ـ كيف تشعرين؟

فأجبت بصدق :

ـ الحقيقة تفوق أى خيال .

ـ لا يستطيع الحظ أن يهب فرصة للسعادة أقوى من ذلك .

فتساءلت :

ـ هل أضمن السعادة حقًّا يا أبى؟

فقال بحنان :

ـ العرش يهب المجد، أما السعادة فرهن بحكمة القلب .

فقلت بتأثر شديد :

ـ ما أصدقك يا أبى !

فقال بعطف :

ـ سأصلى من أجل نجاحك وسعادتك .

وتمت مراسيم الزواج بسرعة غير عادية . واحتفل به فى القصر احتفالا يليق بعظمة الملك أمنحتب الثالث وولعه بمتع الحياة . ومضت بى تى إلى الحجرة المذهبة، وهمست فى أذنى بكلماتها المفيدة، وأجلستنى على السرير الذهبى فى ثوب شفاف يتجلى تحته جسمى العارى . ولاح فى الباب ولى العهد والمشاعل فى الأركان تزهر . نزع شملته عن وزرة شفافة وأقبل نحوى فى خفة يطل من عينيه الشغف العذب . أوقفنى فوق السرير وضم ساقى إلى صدره وهمس فى أذنى :

ـ أنت شمس حياتى .

وكان ينعم روحى بنوره، أما جسدى فقد تقلص وانكمش أمام منظره الغريب. وراح يقول بصراحة عجيبة:

- أحببتك فى عيد الجلوس، هرولت إلى أمى وصارحتها برغبتى فى الزواج منك.

وضحك بسرور ثم واصل حديثه:

- أنكرت علىّ رغبتى فى الزواج من فتاة لا يجرى فى عروقها الدم الملكى فقلت لها: «وأنت كذلك يا أمى»، فتظاهرت بالغضب، ولكنها استدعتك إلى مقابلتها، ثم زفت إلىّ موافقتها..

وتذكرت ما ادعت من أنها صاحبة الفكرة وداريت ابتسامة. وكان علىّ أن أتكلم، وأن أقول قولا صادقا، فقلت:

- لقد آمنت بإلهك وبك من قبل أن أراك.

فهتف بحبور:

- على لسان آى أليس كذلك؟ إنك أول من آمن يا نفرتيتى.

فقلت وأنا أدفع عن نفسى اللحظة الحرجة ما استطعت:

- سأكون أول من يترنم بنشيد الإله فى معبده.

- أعدك بذلك.

ثم لثم شفتى وهمس:

- ولكن عليك أن تنجبى وريثا لعرش الإله!

وتلاشت مشاعرى القدسية فلم يبق محلها سوى الحياء والضيق. ومضت الحياة بنا كزوجين ومؤمنين. أما عن حياتى الروحية فقد تلقيت منه مددا لا يفنى أترع قلبى بالنور، حتى توقعت أن يكلمنى الإله كما يكلمه، وأن يكرم نصف رمزه بما يكرم به نصفه الآخر. أما جسمى فكان يتجلد فى كآبة وصمت. وحلت به الثمرة فتوعكت صحتى وتغير لونى، وعبث القادم بى، عبث برشاقة جسمى الجميل. وكان مولاى

يعيش فى الحقيقة ويكرس ذاته للحقيقة، ويتحدى كافة القوى من أجل الحقيقة، ولا يمقت رذيلة كما يمقت الكذب والكاذبين، فساءلت نفسى فى قلق: كيف أجيبه لو خطر له يوما أن يسألنى: «أتحبيننى يا نفرتيتى؟». لن أجد الشجاعة للكذب عليه. وفضلا عن ذلك فقد تعلمت منه أن أحب الحقيقة وأن أكره الكذب. وأعددت إجابة عن سؤاله المحتمل، وهى أن أقول له:

ـ سيجىء الحب فى وقته فمعذرة لأننى أكره الكذب مثلك.

وهى إجابة ربما تلاشت معها أحلامى، وأقصتنى عن المجد والنور. ولكنه لم يطرح ذلك السؤال قط، فظل من هذه الناحية على غموضه وظللت على قلقى. ويوما استدعتنى الملكة تيى إلى استراحتها وراحت تتفحص جسدى باسمة، ثم قالت:

ـ اعتنى بنفسك ففى بطنك تدب حياة ستنضم عاجلا إلى تاريخ هذا الوطن.

فلمست فى قولها إشارة إلى انتظار ولى العهد، فقلت:

ـ صلى من أجلى يا مولاتى.

فقالت بثقة:

ـ أمامك عمر طويل.

فقلت بإشفاق:

ـ لا حيلة لى فى ذلك.

فقالت محذرة:

ـ لا تسلطى الخوف على فكرك.

فقلت كالمتشكية:

ـ لن أسأل عما ليس فى طوق البشر.

فهمست :

ـ الملكة ليست كسائر البشر !

إنها تحطم وسائل دفاعى . امرأة قوية وداهية وجديرة بما يصفها أبى به من عظمة . وزوجى يحبها لدرجة مثيرة ، وهى تعتبره ملكها وحدها حتى بعد زواجه . وشعرت بأننى ما زلت أرسف فى أغلالها . ومضت أنباء الإله الجديد تتسرب إلى الكهنة ومضى الجو يكفهر . وفى تلك الفترة من حياتنا عرفت مدى قوة زوجى المستترة وراء ضعفه الجسدى ، لمست صلابة روحه ، وقوة تصميمه ، وعنف شجاعته ، وصموده أمام التحديات . قال لى مرة :

ـ إن أحجار الأهرام مجتمعة لا تستطيع أن تثنينى عن هدفى .

فقلت له متأثرة بحماسه :

ـ إنى معك فى جميع الأحوال .

فهتف :

ـ لن يخذلنا إلهنا .

حتى أبوه وأمه لم يستطيعا أن يزحزحاه عن موقفه . ودعتنى تيى إلى لقاء فى يوم أعتبره من أخطر أيام حياتى . سألتنى :

ـ هل شغلك الحمل عن أحزان طيبة؟

فقلت لها وأنا أتوثب لمعركة :

ـ أحزان طيبة هى أحزاننا . فتساءلت بدهاء :

ـ ألم تؤثر فيه كلماتك الطيبة؟

فقلت بجرأة :

ـ كلمات إلهه هى الأقوى .

فقالت بتوجس :

ـ ولكنك لا تبدين حزينة أو قلقة .

فهويت على أغلالى قائلة :

ـ إنى مؤمنة بما يقول يا مولاتى .

بذلك التصريح أعلنت أن حبى للإله أقوى من حبى للعرش وحررت نفسى . واتسعت عيناها النجلاوان وتساءلت :

ـ آمنت حقّا بالإله الجديد ؟

ـ نعم يا مولاتى .

ـ لكن ذلك يعنى إنكار آلهة مصر؟

فقلت بحرارة :

ـ إنه واحد لا شريك له .

فتساءلت بنبرة غاضبة :

ـ أليس من حق الآخرين أن يعبدوا آلهتهم؟

ـ إنه لا يتعرض للآخرين .

ـ لكنه سيكون يوما الملك الخادم لجميع الآلهة؟

ـ نحن لا نخدم إلا إلها واحدا .

فهتفت :

ـ ألا تقدرين عواقب هذا التمرد؟

فقلت بثقة صادقة :

ـ إلهنا لن يخذلنا أبدا .

فسألتنى بغيظ ومرارة :

ـ ألم تعدينى بالتعاون دون قيد أو شرط ؟

فقلت برقة :

ـ إنك مولاتى ، ولكنه الإله فوق كل شىء .

ورجعت إلى جناحى دامعة العينين، مجهولة المصير، ولكن مطمئنة القلب. وسرعان ما صدر الأمر للأمير للقيام على رأس البعثة المشهورة لزيارة الإمبراطورية. وقيل وقتها إنه أريد بها ترويض ولى العهد وتعريفه بواقع إمبراطوريته لعله يرجع عن غيه! ولكنى شعرت أيضا بأن تيى شرعت تعاقبنى بحرمانى من زوجى فى وقت أوشكت فيه على الوضع. ولما ذهب ألقى بى فى خضم تجربة جديدة ما تصورتها قط. ماذا حدث فى تلك الأيام؟ انطفأ نور الدنيا ولم تعد الشمس تسكب إلا ظلاما. وغزتنى وحدة مخيفة خانقة، لم يخفف منها ملازمة مربيتى تي ولاغناء الجوارى ورقصهن. واحتوتنى الكآبة ودثرتنى بكفنها.

افتقدت مولاى فى كل ركن من أركان جناحى وفى كل ساعة من يومى. لم أتخيل أنه كان يشغل ذلك الحيز كله من حياتى، واكتشفت أنه سر حياتى وكنز سعادتى، لا كمعلم فحسب، ولكن كزوج وحبيب أيضا. وبكيت ندما على عماى وجهلى، وتلهفت على رجعته لألقى بقلبى تحت قدميه. وحدث فى القصر ما سرى عنه بعض همومه، فقد جاءنى المخاض، كما جاء الملكة تيى، فى وقت واحد تقريبا، فأنجبت أنا ميريتاتون وأنجبت الملكة توءمين هما: سمنخ رع وتوت عنخ آمون. ولما عرفت بأننى رزقت أنثى ركبنى الهم والحزن، وتوكد لدى بأن مركزى يزداد ضعفا أمام امرأة القصر القوية. وترامت إلىّ همسات الحريم بأن لعنة الكهنة قد حلت بى وأننى لن أنجب ذكرا ما حييت.

وفى تلك الأثناء جاءت تادوخيبا ابنة ملك ميتانى لتلعب دورها فى طيبة. وكان الملك أمنحتب الثالث قد سمع بجمالها فطلب الزواج منها دعما لأوامر الصداقة بينه وبين ميتانى. . وكانت تيى تدرك بواعث زوجها الحقيقية، ولكنها كانت دائما تسلط عقل الملكة العظمى على عواطف زوجها وتهيمن بقوة خارقة على الغيرة مكرسة جل وقتها للحكم. وجاءت تادوخيبا تشق طريق طيبة فى موكب فخم تتبعها

ثلاثمائة جارية. تسليت بسماع الأنباء وأنا غارقة فى وحدتى وأحزانى، وحدثتنى تى عن موكب الأميرة الصغيرة وجمالها، وختمت حديثها بقولها:

ـ ولكن لا تعلو على شمسنا شمس فى الوجود!

وذاع فى جنبات القصر أن الملك العجوز الذى أخذ المرض يكدره قد هام بالعروس الجديدة التى فى عمر أحفاده، وأنه غرق فى بحر العسل. ولكن باله لم يصفُ طويلا إذ جاءت التقارير عن رحلة ولى العهد لتعصف بأمنه وسعادته. ودعيت للاجتماع بالملك والملكة فهالنى أول ما هالنى ما حل بالملك من ضعف؛ نتيجة لإفراطه فى الحب واللهو. رغم ذلك بدا غاضبا شرسا، وجعل يهتف:

ـ يا له من فتى طائش!

فقالت تيى:

ـ يمكن أن نسترد هيبتنا بعرض لجيش الدفاع فى أنحاء الإمبراطورية!

فقال لها ساخرا:

ـ لقد بدد الأحمق مدخره الموروث من الإجلال ولن يسترده مهما فعلنا.

فتساءلت بعد تردد:

ـ ألا يجوز أن يأسرهم بلطف أخلاقه؟

فهتف بى:

ـ ما أنت إلا حمقاء مثله.

وقالت لى المرأة الداهية:

ـ كان بوسعك أن تعقليه!

فقلت لها وأنا أدارى انفعالى:

ـ هيهات أن أقدر على ما تعجزين عنه يا مولاتى!

فقالت متمادية فى تحديها لى:

ـ ولكنك تشجعينه وأنت راضية!

فلوح أمنحتب الثالث بيده مهددا، وقال:

ـ سأخيّره حال عودته بين الطاعة وبين الحرمان من ولاية العهد!

ورجعت إلى أحزانى مشفية على اليأس. ولكن تى أيقظتنى فى صباح اليوم التالى، ثم همست فى أذنى:

ـ مات الملك يا مولاتى.

وثقل قلبى بالحزن. وجعلت أتساءل: ترى هل نفذ الملك وعيده قبل وفاته؟ وهل يمكن أن تضحى تيى بابنها المعبود؟! وفى الفترة التى حمل فيها الجثمان إلى دار التحنيط استدعتنى الملكة وقالت لى وهى ترمقنى من خلال عينيها الحمراوين من أثر البكاء:

ـ اعلمى أن الكهنة اقترحوا علىّ المناداة بسمنخ رع أو توت عنخ آمون ملكا على أن أتولى الوصاية على العرش.

لم أشك فى تلك اللحظة فى أنها أنزلت بى عقابها بكل ثقله وعنفه فقلت مستسلمة لقدرى:

ـ قرارك دائما يصدر عن حكمة وإنى به راضية!

فتساءلت بقسوة:

ـ أتنطقين عن صدق؟

فأجبت بهدوء اليأس:

ـ وماذا أملك سوى ذلك؟

فقالت بحدة:

ـ غلب الحب الحكمة فرفضت الاقتراح!

فتنفست بعد غرق وأعيانى الكلام، فسألتنى ساخرة:

ـ سعيدة؟

فقلت بأمانة :

ـ نعم يا مولاتى فإنى أمقت الكذب!

ـ هل تعدينني بالدفاع عن العقل والتقاليد؟

فقلت وأنا أتمزق:

ـ لا أستطيع يا مولاتى !

فنفخت مغيظة محنقة وهتفت:

ـ إنك تستحقين العقاب، ولكنك جديرة بالإعجاب أيضا، فلتواجها مصيركما بحكمتكما ولتكن مشيئة الآلهة!

وصرفتنى مكفهرة الوجه فعدت إلى جناحى سعيدة على رغم الحداد وانهلت بالقبل على وجه ميريتاتون الصغيرة. وما لبث حبيبى أن رجع من رحلته بقامته الطويلة النحيلة وأنسه المبدد للظلمات فهرعت إليه وعانقته بكل قوة حبى. وتفرس فى وجهى وقتا، ثم قال بطمأنينة:

ـ أخيرا جاء الحب يا نفرتيتى!

فأذهلنى قوله وعزانى، وقلت متلعثمة:

ـ إنى أحبك من قبل أن تراك عيناى.

فقال باسما:

ـ ولكنك لم تحبينى كزوج إلا هذه المرة!

فأذهلتنى قدرته على قراءة القلوب فلم أنبس. ومثل أمام جثة أبيه قبل الدفن، ورجع إلىّ بأثر البكاء فى عينيه، ثم قال كالمعتذر:

ـ الموت يهزنى حقّا، ثم إننى لم أحبه كما يجب!

وجلسنا على العرش فى جو ملىء بالتربص والتحدى، وسرعان ما

تجلت قوة حبيبى الكامنة كأعظم ما تكون القوة. وبدأ بعرض دينه على رجاله فأعلنوا إيمانهم به. ولم أشك أنا فى صدقهم قياسا على نفسى، ولكن الأحداث أثبتت أن أكثرهم لم يكونوا صادقين، أو أن إيمانهم لم يبلغ درجة التضحية بالنفس، باستثناء مرى رع الكاهن الأكبر. ولا أشك اليوم فى أن بصيرته الصافية لم تخدع بهم، وأنها نفذت إلى أغوار قلوبهم، ولكنه كان يؤمن دائما بأن الحب كفيل بهداية الجميع فى النهاية، وأنهم سيعبرون مرحلة الإيمان السطحى إلى الإيمان الحقيقى عندما يأزف الوقت وكما فعلت أنا فى علاقتى الزوجية به. بل أقول أكثر من ذلك بأن نفرا منهم اقتنعوا بعدم أهليته للعرش فحلموا بأن يخلفوه فى ذروة الأزمة، منهم حور محب، بل منهم أبى - آى نفسه - وليس الحدس مرجعى الوحيد فى تصورى هذا، ولكنى استخرجته بفطنة من بعض المواقف أو فيما عرض من حوار مثير فى أيام الهزيمة. لذلك أراحنى جدًّا اختيار الكهنة لتوت عنخ آمون دونهم، وإن كنت أشك فى أنهم يئسوا حقًّا من تحقيق أحلامهم بطريقة أو بأخرى. على أى حال بدأ حكمنا فى ذلك الجو المتوتر، ولكننا كنا سعداء على رغم كل شىء، وأخذت ميريتاتون تحبو على حين تكونت ثمرة جديدة فى بطنى نتيجة للحب الكامل هذه المرة. ولم يعرف امرأة غيرى على الرغم من أنه ورث حريم أبيه كما تقضى التقاليد، وفيه الميتانية الجميلة تادوخيبا.

وزارتنا الملكة الوالدة تيى فتوقعت متاعب من نوع ما. وصح ظنى فقالت لابنها على مسمع منى:

- أيها الملك، إنك تهمل الحريم..

فقال زوجى ضاحكا:

- إنى موحد فى الحب كما فى الدين!

فقالت بجدية:

ـ ولكنك مطالب بالعدل. ولا تنس تادوخيبا ابنة صديقنا توشراتا فهى تستحق الرعاية إكراما لأبيها..

ونظرت نحوى فزاغ عنها بصرى وأنا فى غاية الضيق، فقالت بدهاء:

ـ نفرتيتى تثبت كل يوم أنها جديرة بالعرش فلعلها توافقنى على رأيى..

فواظبت على صمتى كاظمة غيظى على حين راحت تتحدّث عن واجبات الملكة. ولم أستطع أن أقهر رغبتى فى زيارة الحريم، فى الظاهر للتعارف وفى الحقيقة لرؤية الأميرة الجميلة. ووجدتها جميلة حقّا ولكن ثقتى بنفسى لم تتزعزع، وتبادلنا كلمتين للمجاملة وافترقنا عدوتين سافرتين. وفى اليوم التالى جالست زوجى فى جوسق بالحديقة وإذا بى أسأله:

ـ ماذا تنوى بالنسبة للحريم؟

فأجابنى ببساطة:

ـ لا رغبة لى فيه!

فقلت باحتجاج:

ـ ولكن الملكة الوالدة لا تكترث للرغبات!

فقال بغموض:

ـ إنها مولعة بالتقاليد!

فقلت بوضوح:

ـ أما أنت فإنك عدو التقاليد الأول.

فضحك بسرور وقال:

ـ صدقت يا حبيبتى!

وأظن أنه فى ذلك الوقت تمت المقابلة المثيرة بينى وبين كاهن آمون الأكبر. تمت بناء على طلبه وبوساطة أبى. وقال لى:

ـ مولاتى، لعلك تعلمين بما جئت من أجله؟

فقلت له دون مواربة:

ـ إنى مصغية إليك أيها الكاهن الأكبر.

فقال برجاء:

ـ ليعبد الملك ما يشاء من الآلهة، ولكن لجميع الآلهة وعلى رأسها آمون حقا فى الرعاية.

فقلت:

ـ إننا لا نتعرض بسوء لأى إله.

فقال برقة:

ـ إننى أطمح إلى دفاع الملكة عنا عند الضرورة!

فقلت بصدق:

ـ لا أستطيع أن أعد إلا بما يسعنى الوفاء به.

فقال بأسى:

ـ كان أبوك واحدا منا وبينى وبينه صداقة لا تنفصم عراها.

فقلت:

ـ يسرنى أن أسمع ذلك.

وذهب الرجل ولا شك عندى فى أنه أضمر لى عداوة ثابتة. وكرس الملك حياته كلها لرسالته، داعيا للحب بالحب، نافيا العنف والقهر والعقاب، مخففا الضرائب عن الفقراء. حتى آمن الجميع بأن عهدا جديدا من الخير يحل بأرض مصر. وجاءنى المخاض فولدت ابنتى الثانية سيكيتاتون فخاب رجائى للمرة الثانية فى إنجاب ولى للعهد.

وكثر الحديث عن سحر الكهنة، ولكن زوجى أحب المولودة من أول نظرة وقال لى مواسيا :

ـ سيجىء ولى العهد فى حينه لا قبل ذلك .

وكمل تشييد معبد جديد لإلهنا الواحد فى طيبة، وذهبنا فى موكب لافتتاحه، وإذا بالكهنة يجمعون أذنابا لهم فتظاهروا فى طريق الملك وهتفوا لآمون. واستاء القصر لذاك التحدى السافر، وسهر الملك فى الشرفة مغتما على غير العادة، وراح يخاطب طيبة قائلا :

ـ طيبة، يا مدينة الشر والأشرار، يا مثوى الإله الكاذب والكهنة الفاسقين، لا أريدك بعد اليوم يا طيبة!

وأمره الإله ببناء مدينة جديدة له، ونفذ الأمر فرحل بك على رأس ثمانين ألفا من المهندسين والعمال لتشييد مدينة الإله الواحد. وعشنا فى أثناء ذلك هانئين بسعادتنا الشخصية يتربص بنا جو عدائى شديد التوتر. وأنجبت أنحس ياتون ونفر آتون مسلمة أمرى لإلهى خالق الإناث والذكور. وفى الوقت المناسب انتقلنا إلى المدينة الجديدة مصطحبين معنا سمنخ رع وتوت عنخ آمون، أما الملكة تيى فأصرت على البقاء فى طيبة على كثب من كهنة آمون كيلا يقطع آخر خيط بين العرش والمعابد .

ولما وجدتنى فى مدينة النور أخت آتون المتجلية فى وحدة هندسية متناسقة استخفنى السرور فهتفت فى نشوة وبراءة :

ـ ما أجمل الجمال! ما أعذب روحك يا إلهى!

وافتتحت المدينة بالصلاة فى المعبد، وشدوت بنشيد الإله بصوت لم تسمع المعابد أعذب منه، ثم ألقى الملك موعظته الأولى الشاملة، ورسم مرى رع كاهنا أكبر. وجرى نهر الحياة حاملا إلينا بركات السعادة والنصر، حتى رجع إلىّ يوما من خلوته يلوح فى وجهه الجد والتصميم وقال لى :

ـ أمرنى إلهى بأن يعبد وحده فى البلاد!

وفى الحال أدركت خطورة ما ينطوى عليه ذلك الأمر، فتساءلت:

ـ والآلهة الأخرى؟

فقال بثبات وعيناه تومضان:

ـ سأصدر أمرى بإغلاق معابدها ومصادرة أوقافها.

وران علىّ صمت حتى تساءل:

ـ لا تبدين سعيدة يا نفرتيتى؟

فقلت بعجلة:

ـ إنك تتحدى كهنة البلاد أجمعين.

فقال ببساطة وثقة:

ـ إنى على ذلك لقادر.

فقلت بعد تردد:

ـ ألا يسوقك ذلك لاستعمال العنف وأنت رجل الحب والسلام؟

ـ لن ألجأ إلى العنف ما حييت!

ـ وإذا تصدوا لأمرك بالمقاومة؟

ـ سأوزع الأوقاف على الفقراء ولن أتعرض لمتمرد بسوء قانعا بدعوة شعبى إلى عبادة الإله الواحد وهجر معابد الشرك.

فانكشف عنى الغم، وقبلته وأنا أقول:

ـ لن يتخلى عنك إلهك.

وصدر الأمر. وحدث ما لم أتوقعه فنفذ بهدوء شامل، بفضل الإله، وبقوة العرش المهيمنة على النفوس. وازددنا ثقة بغير حدود. وفى العصارى كنا ننطلق فى عربتنا الملكية بلا حرس نجوب شوارع أخت آتون الواسعة تحف بنا الجماهير المتحمسة والنخيل والصفصاف وأشجار

البلخ، محطمين حواجز الوهم بين العرش والناس، نكاد نعرف الناس جميعا بملامحهم وحرفهم والبعض بأسمائهم، وحل الحب حقّا محل الخوف القديم، وتغنى الجميع بأعذب الألحان القدسية. وهمس أبى فى أذنى مرة:

ـ أخشى أن تبددوا هيبة الملك.

فقلت له وأنا أضحك:

ـ نحن نعيش فى الحقيقة يا أبى..

وغزونا البلاد برحلاتنا المقدسة داعين لعبادة الواحد الأحد، وأذهلنا الخصوم والأصدقاء بانتقالنا الدائم من نصر إلى نصر، ولم نكترث لما أفضى به إلينا محو رئيس الشرطة من أنباء عن نشاط الكهنة السرى ومحاولتهم الدائبة لتأليب الناس علينا. ولم يعد سلوك مولاى يدهش أحدا لانغماسه الكلى فى عالمه المقدس، أما أنا فأدهشت الكثيرين حتى سلموا بأننى لغز لا يحل. إذ كيف أهيم مثله فى عالمه القدسى، على رغم وعيى الكامل بواقع الشئون الإدارية والمالية للبلاد! فلعلهم لم يصدقوا أننى كنت صنوه فى الإيمان والحماس للرسالة. وكنت أشاركه الحياة فى الحقيقة وأصدق كل كلمة تصدر عن لسانه الصادق الذى لم يكذب قط. وقال لى ونحن ننتشى بذروة الفوز:

ـ عندما تتطهر الأنفس من أدرانها ستحظى الآذان جميعا بسماع الصوت الإلهى ويعيشون فى الحقيقة!

ذلك كان حلمه، أن يعيش الناس أجمعون فى الحقيقة.

ورجعنا من رحلاتنا الموفقة فوجدنا ميكيتاتون طريحة الفراش تطالعنا بوجه آخر لم نره ولم نعرفه. وجثا إخناتون إلى جانب فراشها وراح يصلى، وانتحيت بالطبيب بنتو فى أقصى الحجرة وقلت له:

ـ البنت تموت يا بنتو.

فأجابنى بأسى :
- قد بذلت ما فى وسعى !
فقلت فى حنق وقهر :
- إنهم يريدون بسحرهم أن يحرموه من أحب الكائنات إلى قلبه . .
وسمعته يهمس بحرارة مخاطبا إلهه :
- لا تفجعنى فيها يا إلهى ، إنى أحبها ولا أطيق الحياة بدونها ، إنها أنضج من عمرها وستكرس حياتها لخدمتك . .
- لكن روحها مضت تتسرب رويدا من قبضة حبنا حتى تركتنا متسامية للنجوم . وانكببنا عليها نبكى ونولول مستسلمين لطغيان الحزن . وجعل يخاطب إلهه :
- لماذا يا إلهى؟ لماذا تمتحن إيمانى بشدة لا داعى لها؟ لماذا تصارحنى بقسوة بأننى ما زلت بعيدا عن معرفتك؟ لماذا تعاملنى بعنف وأنت الرحمة ، وبجفاء وأنت الحبيب ، وبغضب وأنا المطيع ، وبغموض وأنت النور؟ لماذا إذن كسوتها بهذا الجمال ومنحتها هذا الذكاء؟ ولماذا جعلتنا نحبها كل الحب ونعدها لخدمتك فى معبدك؟
وانتشلتنا من حزننا أحزان جديدة شملت داخل البلاد وخارجها مما علمتها بالتفصيل كما ذكرت لى . ولعل أتعس الناس هم الذين يتداوون من حزنهم بحزن أشد . وقابلنا الوزير ناخت وعرض علينا الصورة بحذافيرها . ولا أنكر أن عزيمتى اجتاحتها الكآبة وخامرنى القلق ، أما مولاى فقد صمد أمام العاصفة كأنه الهرم الأكبر . وقال بثقة لا حد لها :
- لن يخذلنى إلهى ، ولن أحيد عن الحب قيد ذرة رمل .
وعدتنى قوته الخارقة فانتعشت روحى قاهرة جميع الهواجس والوساوس ، وندمت على ضعفى العابر . ولما ساءت الحال أكثر جاءتنا

الملكة الوالدة تيى. واجتمعت بنا بعد أن استقبلت رجالنا في قصرها بجنوب أخت آتون. وبدأت حديثها قائلة:

ـ السماء مليئة بالغيوم.

ونقلت بيننا عينيها اللتين أحاط بهما الكبر، وقالت:

ـ أخذت العهد من رجالك بالوفاء لك في جميع الظروف والأحوال.

فسألتها:

ـ ترى هل داخلك الشك فيهم؟

فقالت لى بعتاب:

ـ المحن تطالبنا بالتماس اليقين..

فقال إخناتون:

ـ إلهى لا يبالى بالمحن!

فقالت بحدة:

ـ بل عما قليل ستنفجر الفتن.

فقال بثقة:

ـ لن يتخلى عنى إلهى أبدا.

ـ لا أملك الحق فى التحدث باسم الآلهة، إنهم أكبر من ذلك وإنى أصغر من ذلك، ولكنى أعرف ما يجرى فى دنيا الناس.

فقال بأسى:

ـ أمى، إنك غير مؤمنة..

ـ لا تتحدث عما بينى وبين الغيب، حدثنى كملك وأصغ الىّ كملكة، أقول لك تحرك قبل فوات الأوان، لديك جيش الحدود بقيادة ماى فمره بالزحف على الإمبراطورية، ولديك قوات

الحرس والشرطة فمرها بضرب الفساد والمفسدين، أسرع قبل أن يتهاوى عرشك أنقاضا . .

فقال بحدة :

ـ لن آمر بسفك نقطة دماء واحدة .

فقالت فى أسى عميق :

ـ لا تجعلنى أندم على تمسكى لك بالعرش .

فهتف :

ـ لا يهمنى العرش إلا باعتباره الوسيلة لخدمة الإله!

فنظرت إلىّ تيى وقالت :

ـ تكلمى أيتها الملكة فلعلى لم أخترك إلا من أجل هذه الساعة . .

فقلت بحماس لا يقل عن حماس مولاى :

ـ لن يخذلنا إلهنا يا أماه .

فاكفهر وجهها المتغضن، وقالت بغضب :

ـ استحكم الجنون وانتصر القدر .

وغادرت تيى أخت آتون حزينة مريضة، ولم يمتد بها العمر فى طيبة إلا أياما ثم فاضت روحها الكسيرة . ولم تمض أيام حتى طلب آى وناخت وحور محب مقابلة الملك فاستقبلناهم فى الحال . ولما نظر إخناتون فى وجوههم قال باسما :

ـ لم تجيئوا لخير .

فقال آى :

ـ جئنا يا مولاى مدفوعين بولائنا للعرش والوطن والإمبراطورية!

فتساءل إخناتون :

ـ وماذا عن إيمانكم بخالق كل شىء؟

فقال آى :

ـ ما زلنا نؤمن به، ولكننا مسئولون عن دنيانا يا مولاى . .

فقال إخناتون :

ـ لا قيمة لهذه المسئولية إذا لم تنبع من ذلك الإيمان . .

وعند ذاك قال ناخت :

ـ العدو يتوغل فى الإمبراطورية، والولايات أعلنت تمردها فى البلاد، ونحن فى الواقع محصورون فى أخت آتون . .

فقال الملك بإصرار :

ـ لن يتخلى عنى إلهى، وبالتالى لن أتخلى عن رسالته!

وهنا قال حور محب :

ـ سوف تفرض الحرب الأهلية نفسها علينا!

فقال إخناتون :

ـ لن تقوم حرب أهلية.

فتساءل حور محب :

ـ هل نترك حتى نذبح كالأغنام؟

فقال الملك :

ـ سألقى الجيش المهاجم وحدى بلا سلاح.

فقال حور محب بحزم :

ـ سيقتلونك ثم يقتلوننا، وطالما أنك مستمسك بديانتك فتنح عن العرش وتفرغ لها . .

فقال بوضوح :

ـ لن أتنحى عن عرش الإله فهى الخيانة!

ثم نظر فى وجوههم وقال :

ـ إنى أعفيكم من الولاء لى .

فقال حور محب :

ـ سنترك لجلالتكم مهلة للتدبر .

وذهبوا مخلفين وراءهم إنذارا نهائيا . وما كنت أتصور أن يلقى فرعون مثل ذلك الهوان . وتساءلت فى حيرة بالغة : حتى متى يضن علينا إلهنا بالنصر؟ وعجبت لإيمان حبيبى الراسخ ، واقتنعت بأننى ما زلت دونه بمراحل بخلاف ما كنت أعتقد .

وجاء حور محب لمقابلتى على انفراد وقال لى :

ـ افعلى شيئا ، افعلى ما بوسعك ، سيقتل حتما إذا أصر على موقفه ، بل قد يقتل بيد أحد رجاله! عليك أن تفعلى شيئا قبل فوات الفرصة . .

وتخايل لعينى شبح الموت والهزيمة ، تسلل وهن إلى إرادتى ، وشىء من الشك إلى عقيدتى ، وتساءلت فى حيرة معذبة : كيف أنقذ حبيبى من الموت؟! وخطر لى أننى إذا هجرته فلعل ثقته بنفسه تتزعزع فيذعن لمشيئة رجاله ، ويتنحى عن العرش . أجل ، سيؤمن بأننى خنته كالآخرين ، ولكننى لم أكن أملك وسيلة أخرى . هكذا أقدمت على هجر حبيبى وقصرى ، فلذت بقصرى الخاص فى شمالى أخت آتون باكية العينين ، دامية القلب . وزارتنى أختى موت نجمت ، وأخبرتنى بأن الملك مصر على عناده ، وأنهم وجدوا الحل فى إخلاء المدينة وإعلان ولائهم لفرعون الجديد ، وبذلك تنعدم دواعى الحرب الأهلية . ثم سألتنى بخبث :

ـ متى ترحلين إلى طيبة؟

وكنت أقرأ أفكارها بوضوح ، فقلت بخشونة :

ـ لقد تحققت نبوءة ، وآن للنبوءة الأخرى أن تتحقق ، فاذهبى بسلام ، أما أنا فسأبقى إلى جانب زوجى وإلهى . .

وغمرتنى أيام مثقلة بالتعاسة اقتلعت من قلبى جميع ذكريات السعادة الماضية فكأننى لم أذق للسعادة طعما على مدى عمرى. قبعت فى قوقعة الشعور بالإثم، أرقب من نافذتى مدينة النور وأهلها يبادرون إلى هجرها قبل أن تحيق بهم اللعنة. ترامى إلىّ هديرهم وبكاؤهم، وصراخ أطفالهم، ونباح كلابهم، ورأيت تياراتهم لا تنقطع، ماضية فى طوابير، حاملة ما خف من متاعهم، مندفعين نحو النيل أو الشمال أو الجنوب، وأغلقت النوافذ والأبواب، تابعتهم نظراتى الحائرة حتى آخر حى، ثم رأيت الوحشة تحل محلهم فى المساكن والحدائق والشوارع وتطوق الأشجار، ورأيت الفناء يحلق فى الجو مرسلا نذره الساخرة، فهتفت من قلبى الجريح:

ـ أخت آتون.. يا مدينة النور.. يا مدينة الوحدة القاتلة.. قاسمينا الحظ والمصير.. أين التراتيل والألحان؟ أين قبلات النصر والحب؟ أين أنت يا إلهى الواحد؟ لم تخليت عن المخلصين؟!

خلت المدينة. وأخذت تلفظ أنفاسها ساعة بعد أخرى. لم يبق من أهلها إلا سجينان، حبيبى وأنا، ونفر من حرس الأعداء. ترى فيم يفكر؟ وكيف يرانى؟ وإلام آل إيمانه؟ وقررت أن أذهب إليه لنتكاشف ونصفى الحساب، ولكنى منعت من مغادرة القصر، وحيل بينى وبين مراسلته، فأدركت أنه لم يبق لى إلا انتظار الموت فى السجن. وكذلك حبيبى ومولاى. وسعيت إلى إرسال رسائل بمطالبى البسيطة والمشروعة إلى الملك الجديد أو أبى آى أو القائد حور محب، ولكن رئيس الحراس قال لى بحزم وخشونة:

ـ إنك ممنوعة من أى اتصال بالخارج.

فتبصرت على أيام الوحدة والحزن بلا أمل. وغفلت عن معالم الزمن غارقة فى تأملات حزينة وصلوات متواصلة حتى استرددت إيمانا خالصا بإلهى على رغم كل شىء، بل وآمنت بأن النصر النهائى سيكون

له وإن طال الانتظار. وكبر عليّ أن أتصور أن حبيبى الذى عرفته أكثر من أى إنسان يمكن أن ييأس أو ينهزم أو يفقد ثقته بإلهه الذى خصه بمناجاته دون الناس جميعا. لقد فقد العرش والأتباع والمجد الدنيوى، ولكنه ظل ولا شك هائما فى الحقيقة مطلعا على الأبدية، سعيدا بين يدى إلهه لا يجد وحدة ولا وحشة، منغمسا فى الأنس والرضا والحب.

ولذلك فعندما جاءنى رئيس الحرس وقال بصوته الجاف:

ـ أذن لى أن أبلغك بأن الملك المارق قد فارق الحياة بعد مرض طويل، وأن بعثة ملكية قامت بتحنيطه ودفنه تبعا للمراسيم الفرعونية.

لم أصدق كلمة مما قيل. حبيبى لم يمرض مرضا أفضى به إلى الموت. لعلهم اغتالوه ليؤمنوا نصرهم الزائف، ففارق الدنيا المارقة ليستقر فى قلب الخلود. وسوف ألحق به ذات يوم ليطلع على براءتى ويمنحنى عفوه ويجلسنى إلى جانبه على عرش الحقيقة.

* * *

وتلاشى الصوت العذب بعد الجهد، ولبثت مولاتى صامتة حزينة جليلة تتحدى المحن. ودعتها بكل إكبار، وانصرفت على رغمى مفعم القلب بأريج الجمال الفاتن والذكريات الآسرة.

* * *

ولما رجعت إلى سايس استقبلنى أبى بشوق، وراح يسألنى عن رحلتى وأجيبه، وامتد الحوار بيننا أياما وتشعب. وقلت له كل شىء تقريبا، ولكنى أخفيت عنه أمرين:

ولعى المتزايد بالأناشيد.

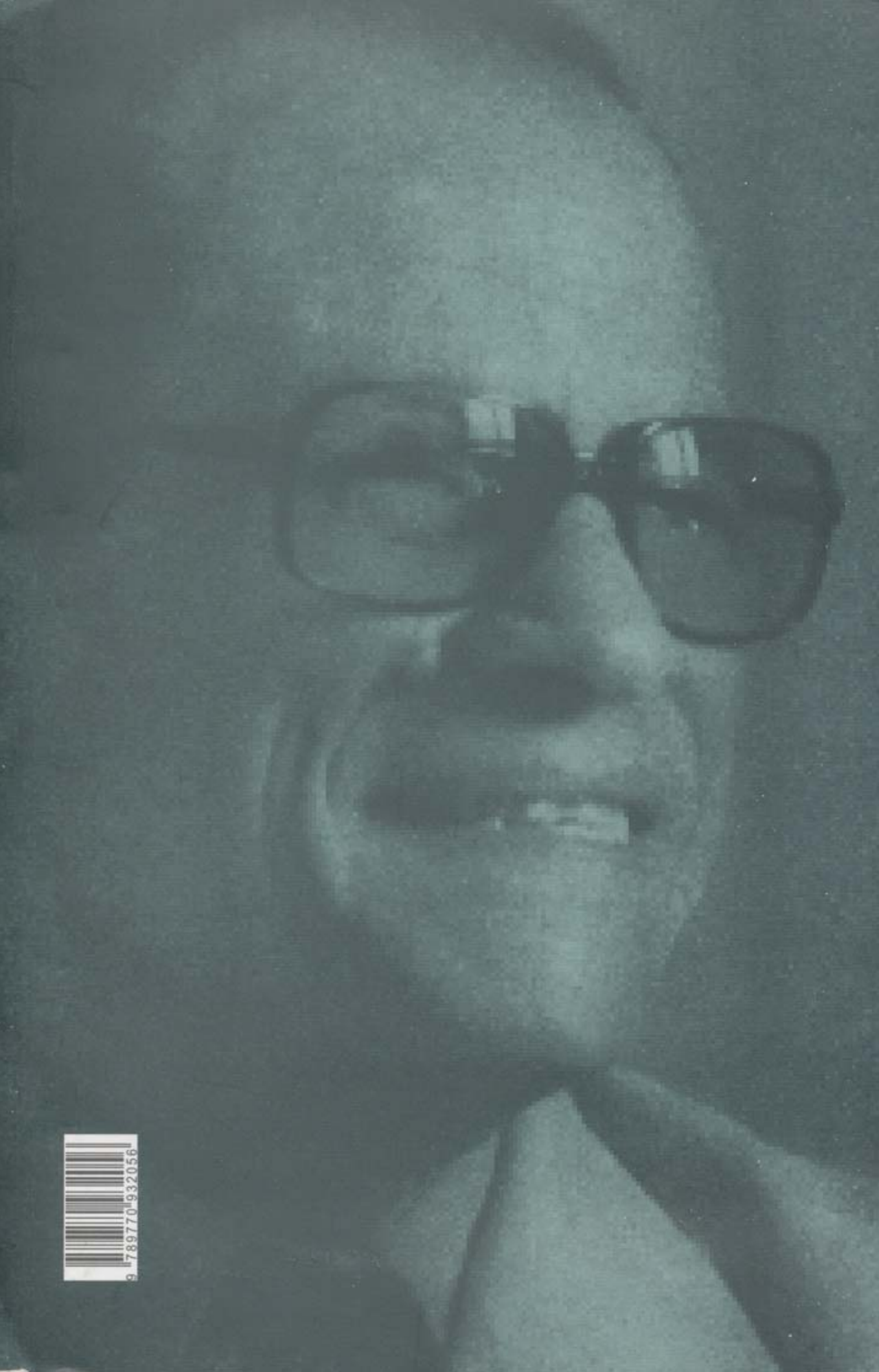
وحبى العميق لتلك السيدة الجميلة.

أعمال نجيب محفوظ

١ -	مصر القديمة	ترجمــة	١٩٣٢
٢ -	همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ -	عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ -	رادوبيــس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ -	كفاح طيبـة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ -	القاهرة الجديدة	روايــة	١٩٤٥
٧ -	خان الخليلى	روايــة	١٩٤٦
٨ -	زقاق المدق	روايــة	١٩٤٧
٩ -	الســراب	روايــة	١٩٤٨
١٠ -	بداية ونهاية	روايــة	١٩٤٩
١١ -	بين القصرين	روايــة	١٩٥٦
١٢ -	قصر الشوق	روايــة	١٩٥٧
١٣ -	الســكرية	روايــة	١٩٥٧
١٤ -	اللص والكلاب	روايــة	١٩٦١
١٥ -	السمان والخريف	روايــة	١٩٦٢
١٦ -	دنيـا اللــه	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ -	الطــريق	روايــة	١٩٦٤

١٨ ـ بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ الشحاذ	رواية	١٩٦٥
٢٠ ـ ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
٢١ ـ ميرامار	رواية	١٩٦٧
٢٢ ـ أولاد حارتنا	رواية	١٩٦٧
٢٣ ـ خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢

٤٠ ـ	رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ	الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢
٤٢ ـ	أمام العرش (حوار بين الحكام)	رواية	١٩٨٣
٤٣ ـ	رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣
٤٤ ـ	التنظيم السرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ	العائش فى الحقيقة	رواية	١٩٨٥
٤٦ ـ	يوم قتل الزعيم	رواية	١٩٨٥
٤٧ ـ	حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧
٤٨ ـ	صباح الورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ	قشتمر	رواية	١٩٨٨
٥٠ ـ	الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨
٥١ ـ	أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ	القرار الأخير	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ	صدى النسيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ	فتوة العطوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ	أحلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤


9 789770 932056